مرايا الخوف

حميد عبد القادر

مرايا الخوف

روايـة

منشورات الشهاب

صدر للمؤلف :

الانزلاق، منشورات مارينور، 1998.
فرحات عباس رجل الجمهورية، منشورات المعرفة، 2000.
عبان رمضان.. مرافعة من أجل الحقيقة، منشورات الشهاب، 2003.
حكايات مقهى ملاكوف الحزينة، دار الحكمة، 2006.

© منشورات الشهاب، 2007.
10، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-704-3
الإيداع القانوني : 2006-2987

الإهداء

إلى زوجتي

إلى ابنتي

اسمى ـــ منال

و نايلة ـــ أنوشكا

"الجنة حقيقة هي، أم مجرد حلم؟"
خ ل بورخيس

"صحيح أننا نعيش في عزلة،
لكن في نفس الوقت لسنا سوى ما أراده لنا الآخرين".
بول أوستير

"إن العالم فظيع، حقيقة لا تحتاج إلى برهان"
إرنستو سباتو

الفصل الأول

2 ديسمبر 1990

ـــ هل سألتقي مع نازلي، ليخفت حزني، وأنسى الخراب من حولي؟

أصوات الناس التعساء كانت ترتفع عاليا... تخترق سماء ديسمبر الغائمة، وأنا واقف في باب الواد أنتظر، وأعاني من بلاء الغياب. قطرات الماء البارد كانت تلسع وجهي، وأنا مختبئ تحت شرفة عمارة آيلة للسقوط، محاذية لموقف الحافلات قبالة ساحة الثورة، حيث تكدست القاذورات، وتحولت إلى مكان تؤمه القطط الضالة التي تتقاسم ما فضل عن عجائز عرى الزمن أخر ما تبقى في ملامحهن من ستر الكرامة.

وقفت أمامي متسولة عجوز منهكة القوى. كانت ترتدي حائكا أبيض، ترتعد من شدة البرد، وقد ازرورقت يدها الممدودة، وكانت تتقاطر ماء. وبجانبي رجل في الثلاثين، نحيف الجسم وعاشقته المتوسطة القامة ذات الشعر الأسود المبلل، والتي تصغره سنا. كان يمسك بيدها، يداعبها، فتحمر وجنتاهما. كانا يتبادلان نظرات العشق المتأجج. بقربهما وقف

شيخ عجوز يتكئ على عصا خيزرانة مُعوجة، يسعل سعالا حادا، ويعتمر قبعة من القطن متسخة، حتى اسود لونها. كان يرقبهما بتقاسيم وجهه التي لم يبق منها سوى نتف من القسوة، وهامة شاحبة. كان يبدو متعبا، هَدَّهُ الوهن إلى درجة أنه لم يعد قادرا على فرض سلطته عليهما. بدا أنه يعاني من إحباطات السن الطاعن. طأطأ رأسه فجأة، ونظر إلى ما تبقى من غبار الأرض أمام رجليه والمطر ينزل عليه، وينمحي. وليس بعيد عنهما، وقف شاب ملتح، وجهه دائري، تشع من عينيه الصغيرتين نظرات حاقدة، يرتدي لباسا أفغانيا أسود، سروال نصف ساق، حذاء جلديا، وسترة سوداء كثيرة الجيوب، وضع في أحدها مصحفا صغيرا وسواكا. لمح العاشقين وهما يمسكان يد بعضهما. يد الرجل كانت تسحق يد المرأة، تعصرها، فاندفع من مكانه غاضبا كالثور الهائج، تقدم نحوهما، وقد انفتحت خياشيمه، ثم صاح فيهما، وهو ينطق بكلمات قاسية :

ـــ نَحي يدك، بَعد عنها.

كح الشيخ العجوز كحا متواصلا، وانشرحت سرائره فجأة. ابتسم، فقال للشاب الملتحي :

ـــ يعطيك الصحة يا وليدي.

لم أراقب العاشقين مثل الشيخ العجوز. ولم أرغب في إرهابهما مثل الشاب الأفغاني. كنت أنتظر عاشقتي. فقد كان في داخلي إنسان مسالم، عاشق يبحث عن عاشقته بين المارة، متلهفا لرؤيتها.

في باب الواد كنت أنتظر ما يسعدني. أنتظر بشوق، وقد ولج ماء المطر حذائي الأيسر، وتبللت ملابسي، وكنت أرتعد

من شدة البرد، بينما كانت تمطر بشدة، والبرد لم يكن يرحم، وأنا واقف تحت شرفة العمارة أنتظر، وكانت العمارة عتيقة، فتذكرت أغنية لمعطوب الوناس، يقول فيها بالبربرية "أوليو يتدو حافي، لتكث فلاس لهوى لخريف" (قلبي يسير حافيا، ومطر الخريف يتهاطل عليه).

كنت أنتظر نازلي. منذ ساعتين، وأنا أنتظر قدومها، لكنها لماً تأت بعدُ، ولربما لن تأتي. ليست المرة الأولى التي أنتظر فيها طيلة هذه المدة دون أن أراها، فأعود إلى البيت خائبا، حزينا، منهارا، منطويا على نفسي، وقد اسود الكون من حولي، وأضحى كل شيء حزينا.

كنت أتطلع إليها، عساها تظهر وسط ذلك الحشد من الناس المتدفق على باب الواد، قادمين من كل جهة. يسيرون إلى حيث لا أدري. الرجال وجوههم غير حليقة، والنساء متعبات. الكل يسرع الخطو، كأن وحشا يتعقبهم. تأكدت من شدة تحديقي فيهم أن أغلبهم كان يسير بدون وجهة، ولا هدف. يتركون طريق المارة، ويسيرون بين السيارات. كأنهم يريدون أن يموتوا، يعرضون أنفسهم للخطر، كأنهم يدركون أن حياتهم لا تساوي شيئا. حياة رخيصة، والموت أهون. أم تراهم يقصدون التمرد، ومخالفة ما هو عادي.

أخذت دقات قلبي تتسارع، وجسدي كان يرتعد من رأسي إلى أخمص قدمي، فقد بلغ بي الشوق إلى نازلي مداه. لم أرها منذ شهر. تعذبت طيلة هذه المدة عذابا مؤلما، قاسيا لا يُحتمل، فنحف جسمي. وكنت مثل من ضل طريقه. أخبرتني عبر الهاتف أنها متشوقة لرؤيتي، لكن يبدو أنها كذبت علي كعادتها، وأخلفت وعدها، فجعلتني حزينا، محطما، فاقد

البأس، أنتظرها بشوق، واقفا تحت المطر، والبرد ينخر جسدي المنهك.

استمر تساقط المطر. المياه غمرت الطرقات، والساعة تجاوزت الثانية زوالا. مر زمن طويل عن الموعد، ونازلي مجرد أمنية يحترق لها قلبي. المتسولة لا تزال أمامي، لم تبرح، والعاشقان غادرا المكان، فتبعهما الشيخ العجوز. وأخرج الشاب الملتحي مصحفه وراح يقرأ. بدأت أفقد الأمل في رؤية نازلي، وعليَّ انتظار أسبوع آخر لرؤيتها، أسبوع تحت وقع العذاب، لتعطيني موعدا مماثلا في هذا المكان. عذاب. كل هذا العذاب لا أطيقه. فقلت في نفسي :" لماذا تتصرف معي هكذا؟ رغم حبي لها، لماذا كل هذه السادية القاتلة، هذا العنف، هذه الرغبة في تعذيبي ؟ هل تتلذذ بهذا ؟"

حملت نفسي المتعبة، المحطمة، الكئيبة، وقلت أتصل بها عبر الهاتف لمعرفة أسباب غيابها. مشيت على طول الطريق الرئيسي، والغيوم التي ملأت السماء أضحت أكثر كثافة، فآسود الكون، وغمرني إحساس بالخوف، بينما المطر راح ينزل من السماء كثيفا. كنت أتقطر، والبرد تسرب أكثر إلى جسدي، فأخذ أنفي يسيل.

توقفت عند مركز البريد بالقرب من ساحة الحكومة. دخلت، فوجدت زبائن كثيرين ينتظرون دورهم أمام مخادع الهاتف. جلست على كرسي مهترئ، وطفقت أنتظر. أدركت أن الجميع كان ينظر إلي، حتما لأني كنت أبدو تعيسا. ملامح وجهي الطفولية، والحزن العميق المنبعث من عيني الذابلتين، أثار انتباههم. جلست بقربي فتاة فاقت العشرين، جميلة، وجهها ملائكي، طويلة القامة، كانت ترتدي سروالا ضيقا يحجم

جسدها. وجودها أضفى على المكان الكئيب بعض الحبور. وقبالتها جلس شاب ملتح، يرتدي لباس الإخوان. كان يحدق فيها بغضب، وكانت هي خائفة. نهض الرجل الملتحي من مكانه، فصاح فيها قائلا :

ـــ استري نفسك يا عارية.

انكمشت الفتاة على نفسها من شدة الخوف. بدت كقطة مذعورة، فنهض الرجل من مكانه. بدا كالعملاق، بقامته الفارعة، وغادر المحل ساخطا، تاركا وراءه رائحة المسك الحادة، ممزوجة بالعرق، ولما وضع رجله على الرصيف قال مهددا :

ـــ لما نقيم دولتنا، سنمزق جسدك أطرافا، ونلقي بك في النار يا متبرجة.

لما جاء دوري، نهضت واتصلت بنازلي. ارتجفت وأنا أمسك بسماعة الهاتف. أخبرتني أختها أنها ليست موجودة في البيت. قلت لها أين ذهبت، فقالت أنها لا تدري، ووضعت السماعة بغضب. بقيت ترن في أذني، فاضطررت لوضعها بدوري.

غادرت مركز الهاتف خائبا، واحترت أين أذهب. لا وجهة لي. حياتي كلها لا وجهة فيها، ولا هدف سوى نازلي. حسبت لحظة تعرفي عليها، أن الحب هو الخلاص من التيه.

كانت الأمطار قد كفت عن التساقط، إلا أن السماء بقيت ملبدة بالغيوم. قلت سأذهب إلى المركز الثقافي الفرنسي، أقرأ قليلا، فربما سأنسى نازلي، والكآبة التي سببتها لي.

راودتني أفكار يائسة وأنا أعبر شارع العقيد بيليسيي. نفسي تتقزز كلما أعبر هذا الشارع، وفي كل مرة أتساءل عن أسباب بقاء اسم هذا السفاح راسخا في ذاكرة أهل البلدة.

هل يعرفون من يكون؟ هل قرأوا شيئا عن جرائمه؟ أشك أنهم يعرفونه، أما أنا فأعرفه جيدا، جاء البلدة لاستكمال الغزو، وحارب الأمير عبد القادر، طارد قبيلة أولاد رياح المتمردة، وأجبر أفرادها على الاختباء في مغارة بجبال الظهرة، حاصرهم بضعة أيام، ولم يستسلموا. كان عازما على إبادتهم. أشعل النار عند مدخل المغارة، فمات أفراد القبيلة كلهم. ماتوا اختناقا، أبيدوا عن بكرة أبيهم. مات الأطفال والشيوخ والعجائز والرجال الذين حملوا السلاح للدفاع عن شرفهم. وكتب بليسيي لاحقا عن هذه الجرائم في رسالة لأخيه قائلا "أغلقت منافذ المغارة، وسعدت برؤية مقبرة جماعية. في اليوم الموالي انتهت قبيلة أولاد رياح. لقد قَتلتُ خنقا ألفا من قطاع الطرق".

بيليسيي أيها الحقير، حملت بذور الشؤم، وجئت غازيا، ممتطيا حصانك الأشهب، مشهرا سيفك، وفي داخلك حقد لا يرحم، جعلت أهل البلدة يتصرفون وفق عنف مماثل، عنف مضاد، ومع مر السنين أصبحوا لا يثقون إلا في العنف، كنت تقتلهم في المساء، وفي الليل يتربصون بجنودك، ويذبحون منهم ما استطاعوا، يمسكون السكين، ويذبحون جنودا غزاة، السن بالسن والبادئ أظلم، وكنت الظالم، أيها الغازي النذل، القادم من مدن الثلج الباردة، لم تنشر التقدم كما كنت تتوهم، بل نشرت الرغبة في القتل، ولذة العنف المضاد، ورغم هذا ما يزال أهل البلدة يرددون اسمك كلما عبروا هذا الشارع الذي سمي باسمك عام 1874، غير آبهين بالتسمية الجديدة التي وضعها رئيس الجمهورية بمجرد أن انتهت الحرب الأهلية الأولى في خريف 1962 وكأني بهم ينتقمون من قرار السيد الرئيس

القاضي باختيار اسم مجاهد مزيف دخل البلدة مع جيش الحدود ومات في الحرب الأهلية في اشتباكات وقعت على مشارف العاصمة بين المحاربين وقوات جيش غارديماو. وكان أهل البلدة قد اقترحوا اسم فدائي استشهد في جانفي 1957 خلال معركة المدينة، لكن السيد الرئيس الذي كان يكن لهم عداوة دفينة ولم يكن يثق في قدراتهم الثورية، ظنا أنهم ليسوا سوى سكان مدينة عاشوا جنبا لجنب مع الغزاة، فرفض التسمية التي اقترحوها للهيئة المختصة بتغيير أسماء الشوارع.

كان الشارع غاصا بالمارة. أخذوا يسيرون في كلا الاتجاهين. يمشون متثاقلين ومتعبين. عند سكوار العقيد أرغو (يقابلني سفاح آخر، مجرم مثله مثل بيليسيي) مر أمامي أطفال يرتدون ملابس ممزقة. بدت على وجوههم ندب تنزل من الأذن إلى الرقبة، أحدهم طلب مني سيجارة، كلمني بصوت نبرته غليظة، أعطيته السيجارة، فالتحق برفاقه. إنهم أطفال السوء. شوارع المدينة المنهارة امتلأت بهم. إنهم مستعدون للقتل من أجل قطعة من الكيف.

أحسست بالندم لأنني لم أغادر البلاد إلى أوروبا. منذ سنوات وأنا أحلم بالهجرة، لكن الحظ خانني، فبقيت هنا، أتجرع طعم المأساة. قلت أجرب الحب ربما سيخرجني من مأساتي، فتعرفت على نازلي. كنت أعيش الفراغ المطلق. منذ أن توفي جدي، وأنا أعيش كيفما اتفق، هائما، ضائعا، أعاني من جراء غيابه، وأتألم لرحيله، لم أعد أملك من ينير لي دربي، دربي الذي أصبح محاطا بالمخاطر، وسط هذا العالم التعس. كان جدي يعرف كيف يضعني على الوجه الصحيح، ولما مات فجأة منذ خمس سنوات، تغيرت حالي، فانغمست في قراءة

كتب الفلسفة والحضارات القديمة بحثا عن سر السعادة. قرأت كثيرا من هذه الكتب، ولم أنسق وراء أفكار الأئمة الجدد لملء فراغي، مثلما فعل كثير من أبناء جيلي. دخلت المسجد مرة واحدة في حياتي، ربما تحت تأثير الأئمة الجدد. لست أدري. أو ربما بسبب الفراغ الذي تركه رحيل جدي، أم الفراغ فقط، فالناس تتدين خوفا من شيء مخيف، والزمن كان مخيفا، موحشا، يدفع إلى التمسك بشيء نخاله مرفأ النجاة. أهل الحي جميعا تحولوا إلى الصلاة، كنت واحدا منهم في البداية، ومثلهم دخلت المسجد، وصليت...

مسجد الحي بناية صغيرة. هو في الحقيقة مصلى فوضوي. سقفه من التيرنيت. جدرانه متسخة نخرتها الرطوبة. أرضيته من الإسمنت. تحيط به حشائش برية من كل جانب. بابه من الأخشاب التي لفظها البحر. كنت دائما أتساءل لماذا يرضى الناس بالصلاة في أماكن فوضوية مثل هذه؟ لماذا قبل الصلاة أو بعدها، لا يقدمون على اقتلاع الحشائش الضارة، وغرس الأشجار والورود، وطلي الجدران، حتى يبدو المكان لائقا بالمقام؟ لماذا يتسابقون لمغادرة المسجد ويتدافعون بالمناكب؟ لماذا كل هذه التعاسة المحيطة بالمسجد؟ لماذا ارتبطت مظاهر التدين بالشعائر فقط، لماذا لم تتحول لثقافة تتجسد في سلوكيات الناس؟ لماذا تسرق الأحذية في بيوت الله؟ لماذا يعبق السجاد بالعفونة؟ لماذا طال التدهور والانحطاط بيوت العبادة؟

وفي أيام الجمعة كان المصلون يتسابقون للظفر بأمكنة مريحة، ويتكئون على الجدران. التعب كان يعلو وجوههم، كأنهم يأتون إلى المسجد مرغمين، أو ربما كانوا يعرفون مسبقا أن الخطبة تستغرق وقتا طويلا، فيتعبون، هم المتعبون دائما.

ولا يقوون على الاستمرار طيلة تلك المدة المضنية في الاستماع لخطب عنيفة تنتهي بدعوات جهادية مرعبة، وساخطة على موظفي الدولة، وكل الذين رفضوا السير وراءهم.

لم أعثر على مكان مريح حينما دخلت المسجد أول مرة. جلست بالقرب من رجل قصير القامة، قبيح الوجه، كانت تنبعث من ملابسه رائحة المسك. استمعنا إلى درس حول آداب الجماع. كان الموضوع مثيرا لغريزتي الجنسية التي لم ترتو بعد. وكان المدرس يستفيض في الحديث عن الجنس.

لما انتهى الدرس صعد الإمام إلى المنبر، قلت في نفسي "كم هو صغير". ولست أدري كيف قلت مع نفسي "ربما لا يزال يستمني مثلي". لم يكن يتجاوز الخامسة والعشرين عاما. جسده نحيف، ولحيته لم تكن كثة. نمت بضعة شعيرات فقط على ذقنه، وكانت تشبه الزغب. ثم سرعان ما لفت انتباهي ندبة طويلة تحت أذنه اليمنى، تمتد إلى غاية رقبته. بين الفينة والأخرى كنت أراه يضع يده اليمنى عليها، كأنه يريد إخفاءها. ضرب بعصاه على المنبر الخشبي، فأطلق العنان لصوته الغليظ. كان يخطب بعنف، يصرخ ويلوح بيده اليسرى، ويتوعد الناس الذين يرفضون السير وراء الأئمة الجدد. قال إن مصيرهم جهنم. ويضيف بمزيد من العنف والوحشية وقد تجهم وجهه، وتصبب العرق من جبينه... "اللهم رمل نساءهم، ويتم أولادهم، اللهم جمد البراز في أحشائهم، وجفف الدماء في عروقهم، اللهم أنزل عليهم الزلازل والصواعق والبراكين، اللهم سلط عليهم الأمراض، ما بدا منها وما بطن، اللهم أنشر الفاحشة فيما بينهم."

استغربت كلامه. ارتعدت من شدة الخوف. فتساءلت في قرارة نفسي "لماذا هو عنيف؟ كيف يسمح لنفسه بأن يتوعد الناس هكذا؟ وهل هؤلاء الأئمة الجدد هم خلفاء الله على الأرض؟ وهل الله هو كل هذا العنف المنبعث منه كالشرر؟ لم أحتمل العنف المتطاير من خطبته. نهضت من مكاني، وغادرت المسجد. كانت تلك آخر مرة أدخل فيها تلك البيوت التي تسمى مسجدا. أدركت أن عبادة الله في مثل تلك الأماكن حيث يكثر العنف وينتشر، خطأ كبير، إذ لم أعثر فيها على صوت الله، فالعنف لا يستحضر الله، بل يستحضر إبليس. من المسجد توجهت صوب البحر، جلست على الشاطئ، تحت شجرة صفصاف مورقة، ورحت أراقب أفقه الأزرق، تضرعت إلى الرب، وأنا أصغي للأمواج وهي ترتطم بالصخور، تندفع، تتحطم على الصخر، وتتكون من جديد. إنها لعبة الحياة والموت. رفعت رأسي إلى السماء الصافية، فساورني إحساس بالهدوء، لم يسبق أن ساورني وأنا في المسجد أستمع لتلك الخطبة العنيفة.

كان صوت الموج وهو يقلب الرمل الناعم يحدث مزيدا من السكينة في روحي المضطربة، الحزينة، فمسكت صخرة ملساء، وأخذت أقلبها بتؤدة بين أصابعي.

29 سبتمبر 1990

حين نكون هائمين في دنيا البؤس، فريسة التعاسة والآلام المبرحة، نعتقد أن الحب قادر على تخليصنا من الضياع.

حملت هذه الفكرة وأنا أمشي هائما في شوارع المدينة بلا غاية ذلك المساء الخريفي الحزين، لما رأيت نازلي لأول مرة.

الشمس كانت سائرة نحو المغيب، ورغم ذلك بقي الطقس يبعث قليلا من الدفء، فبرودة الخريف لم تحل بعدُ.

كانت نازلي جالسة بجانبي تنتظر الحافلة. بدت لي جميلة، رقيقة، وقد وضعت نظارات شمسية على عينيها. بشرتها سمراء، وشعرها "ألا غارسون" يميل إلى السواد. الخال الذي على خدها الأيمن، زادها جمالا. عرفت لاحقا أن لون عينيها أخضر. بقيت أحملق فيها دون أن تدرك هي ذلك، أتلذذ بالتحذيق فيها، كأنني اكتشفت الأرض الموعودة، وأتخيل نفسي معها في مكان بعيد، أداعب شعرها، وأقبلها مثلما يقبل روك هيدسون دوريس دي في الأفلام العاطفية التي كونت لاحقا تصوراتي عن العشق.

التقيت بها في اليوم الموالي. والحقيقة أنني أنا من قصد لقاءها. انتظرتها على الساعة الخامسة. تبادلنا نظرات محتشمة، فابتسمتُ لها. خفضت رأسها، وفعلت كما أن شيئا لم يحدث، وتظاهرت بعدم الاكتراث بي. كنت ألتقي بها كل يوم على الساعة ذاتها، أنتظرها كمن ينتظر خلاصه، بفارغ الصبر، متأججا، مكتفيا بتلك النظرات المختلسة وسط الناس وهم ينتظرون قدوم الحافلة. وذات يوم بينما كنت أنتظرها وأنا أحدق في السماء الغائمة، وأوراق الأشجار قد تناثرت أمامي على الأرضية الإسفلتية المخربة، تجرأت على سؤالها :

ـــ هل أنت طالبة في الجامعة ؟

أجابتني قائلة، وقد ابتسمت :

ـــ لا. وأنت ؟

ـــ أنهيت دراستي منذ سنة.

ـــ ماذا درست ؟

ـــ الحقوق.

ـــ وهل عثرت على وظيفة ؟

أجبتها متأسفا :

ـــ ليس بعد. هناك وعود كثيرة، ربما سأوظف الشهر القادم.

كنت أتجنب الحديث عن خيبتي، فلا وعود ولا شيء من هذا القبيل، فسألتها عن اسمها فقالت :

ـــ نازلي.

ـــ وأنت ؟

ـــ زين الدين. ويلقبونني زينو.

ـــ سعيدة بمعرفتك.

ـــ لم تخبريني أين تعملين.

ـــ مثلك أبحث عن عمل.

تكلمنا كثيرا ذلك اليوم. في الحقيقة كنت أنا من أسهب في الحديث معها. حدثتها عن نفسي. كنت أتكلم بجد. أخبرتها أنني قرأت كثيرا، تاريخ الحضارات خاصة، بحثت عن سر السعادة في الكتب، لدى فلاسفة الخير والشر. لم أترك شيئا أعرفه إلا وحدثتها عنه. كنت أسعى لإغوائها بما أملك من أفكار فلسفية عن الحياة.

كنت شابا فقيرا، نحيف الجسم، عشت حياتي منقوصا ومحروما من عاطفة الحب، فانغمست في القراءة، بحثا عن عوالم جديدة للخلاص والإحساس بالسعادة، فالفقر يجعل

الإنسان يحس بالحاجة إلى امتلاك أي شيء يعوض به حرمانه، فلم أجد سوى الأفكار لكي أمتلكها وأدركت لا حقا أن الجيل الذي أنتمي إليه أراد امتلاك الله، ومفاتيح الجنة، أما أنا، فلم أكن أملك شيئا لأسرها، كنت أملك أفكاري الفلسفية لا غير.

كم كنت مخطئا، وأنا أحدثها بتلك الجدية والرصانة! لم أكن أعلم حينها أن النساء مغرمات بكل شيء إلا بالأفكار الكبيرة التي عثرت عليها لدى لاوتسي، وبوذا، ونيتشه، كنت مثاليا إلى درجة عدم إدراكي أن المرأة لا تترك نفسها تنساق وراء عاطفة الحب، بتأثير من قدرة الرجل على الحديث مثل حكيم مستغرق في الأفكار الكبرى، فالقوة في هذا البلد هي التي تجعل الإنسان يفتك احترام الآخرين، ينتزعه منهم بما يملك من قدرة على الترهيب. لم أكن حينها واعيا بهذا المنطق المدمر المنتشر بين الناس، سواء كانوا رجالا أم نساء. الجميع يخضع للأقوى، وليس لمن يملك الأفكار، فذلك الكائن مصيره الحزن والشقاء.

حينما وصلت الحافلة بعد نصف ساعة، قالت لي نازلي :

ـــ سنصعد هذه المرة.

صعدنا إلى الحافلة وسط الزحام، وبقينا واقفين في الخلف، فقالت، وكادت تلتصق بي :

ـــ أين تسكن ؟

قلت لها :

ـــ في حي سان كلو.

ـــ أقصد تسكن في فيللا أم في عمارة ؟

ـــ ليس في فيللا، ولا في عمارة، بل في دويرة صغيرة قبالة البحر. غرفتي قبو، نخرت الرطوبة جدرانه.

ـــ ماذا يعمل والدك ؟

ـــ صياد.

رفضت أن أسألها عن والدها، كما استغربت أسئلتها هذه، ثم أضافت :

ـــ أمي تشتغل خادمة عند الأغنياء الجدد.

أتذكر أنها لم تحدثني عن والدها. وأثارت صراحتها في إحساسا بالإعجاب راح يتدفق تجاهها، فأحسست بالعطف نحوها، كنت مثل من اكتشف طرفهاالآخر المعذب مثله، فشكل ذلك بداية نمو شعور بالرغبة في التواصل معها، بدافع فكرة "أيها المعذبون في الأرض، تبادلوا العشق، فهو خلاصكم وبر أمانكم".

كنت أرغب في استمالتها مجددا إلى عالمي المفضل، عالم الأفكار الذي لا يخذلني أبدا، فسألتها :

ـــ هل تقرئين الأدب ؟

ألقت نظرة خاطفة إلى الخارج، عبر النافذة أمامنا، ابتسمت، وقالت :

ـــ لا.

قالت هذا وضحكت. سألتها عن سر الغرابة في سؤالي، فأجابت :

ـــ هذا مضحك.

ـــ ماذا ؟

ـــ سؤالك عن الأدب.

باغتني جوابها، إذ لم أكن أنتظر برودتها، فقلت :

ـــ أرغب في أن أصبح كاتبا.

هزت كتفيها ولم تقل شيئا. كنت أحمل في جيبي رواية "غاتسبي العظيم" لسكوت فيتجيرالد، أريتها إياها، قائلا :

ـــ أحب هذه الرواية كثيرا. قرأتها أكثر من عشر مرات، ولم أعثر في تاريخ الأدب على رواية أكثر حساسية. إن فتجيرالد روائي عظيم. و"غاتسبي العظيم" رواية لا مثيل لها.

قالت :

ـــ لماذا ؟

قلت :

ـــ موضوعها مثير.

ورغم أنها لم تبد أي رغبة في معرفة محتواها، قلت :

ـــ فيها ندرك أن الحب والموت شيء واحد.

راودني إحساس بأنها سئمت من هذا الموضوع، عندما قالت :

ـــ لا أهتم بالأدب إطلاقا.

قلت لها :

ـــ أنا أعشق الأدب، فلو سألتني مثلا متى ولدت لقلت لك، ولدت عندما كان بطل بول أوستير في رواية "مون بلاس" يتضور جوعا في شوارع نيويورك. "مون بلاس" تشبه رواية "مدار السرطان" لهنري ميلر.

ـــهل تعرفين هنري ميلر؟

ـــ لا.

ـــ هو روائي أمريكي ابتدع شخصية السيد عدم.

صمت ثم قلت :

ـــ كلنا نشبه السيد عدم في هذا البلد، نحن لا شيء. نعيش في عوالم فارغة مثل عوالم همنغواي، ونتعذب من جراء ذلك. لقد فقدنا الفردوس، والأرض أضحت مكانا غير لائق للعيش، أحيانا أقول إن الموت هو خلاصنا الوحيد. الموت أو الحب، لا نملك خيارا ثالثا.

صمتت مجددا، ثم سألتها :

ـــ وأنت في ماذا تقضين وقتك ؟

ضحكت ثم قالت :

ـــ أمام التلفزيون، وفي كثير من الأحيان في تدبير شؤون البيت، أمي تعود دائما متعبة من عملها. الخدمة في بيوت الأغنياء ليست سهلة.

كانت تبدو حزينة وهي تتحدث عن أمها. حزنها راح يعمق في ذلك الإحساس بالحاجة إلى التقرب منها. قلت في نفسي إن لقاء امرأة تعيسة ورجل أتعس، حتما يصنع السعادة. بقينا صامتين لحظة من الزمن، كنت أحدق في عينيها الحزينتين، وهي ساهية، ربما في وضعيتها. تمنيت أن أمسك بيديها، أضعهما بين يدي، وأخبرها أنني حزين مثلها، وبإمكاني الوقوف إلى جانبها، لكنها سرعان ما كسرت لحظة الصمت، قائلة :

ـــ لقد وصلت. سأنزل، إلى اللقاء.

كانت الحافلة قد عبرت حي سان كلو، ووصلت إلى غيوت

فيل، أين تسكن نازلي، دون أن أدرك ذلك. كان تيار الحب الجارف قد أخذني، فقلت لها :

ـــ هل أراك غدا ؟

ـــ لست أدري. ربما.

التقينا بعد ثلاثة أيام في قاعة شاي بشارع ميشلي. تكلمنا قليلا، كلاما مبعثرا، فقالت إنها مضطرة للعودة إلى البيت. ودعتني وذهبت، فراودني إحساس بأنها لا تبالي بالارتباط بي. جريت وراءها إلى الشارع، وسألتها :

ـــ هل نلتقي غدا ؟

وكعادتها، أجابت :

ـــ لست أدري. ربما.

قلت في نفسي إن لم أراها في الغد، فإنني لن أغذي أوهامي، لكنها حضرت. وصلت على الساعة الخامسة، كعادتها. انشرحت سرائري حين رأيتها، فبادرتها قائلا :

ـــ أنا في انتظارك.

قالت مبتسمة :

ـــ لماذا ؟

ـــ كنت أرغب في رؤيتك.

ـــ لكني مجبرة على مغادرتك في الحين، أمي في انتظاري، إلى اللقاء.

ذهبت وتركتني في حيرة من أمري. صعدت إلى الحافلة لوحدها، ولم أجرؤ على الصعود معها. تسمرت في مكاني، فأحسست أنها تخلصت مني. وفي اليوم الموالي لما جاءت، أخبرتها قائلا بدون أية مقدمة :

ـــ أريد أن أرتبط بك.

قلت لها الحقيقة. بقيت غارقة في ذهولها، ثم قالت وهي تبتسم :

ـــ يبدو أنك متعود على الصراحة.

ـــ نعم.

ـــ كل هذا سابق لأوانه، أفضل أن نتعارف قبل الارتباط.

وعندما التقينا في اليوم الموالي، لم تأت بمفردها. رافقتها إحدى صديقاتها. كانت تنبعث من السماء أشعة شمس لم تكن دافئة إلى الحد الذي يجعلني أحس بالارتياح. كانت صديقتها تتحدث بسرعة وتنتقل من موضوع إلى آخر، دون أن يكون بينهما أي رباط، وقد استدارت نازلي نحوها، فأعطتني ظهرها، وتركتني حائرا، أنتظر أن تلتفت إلي. كانت تتجاهلني عن قصد. غضبت، وقلت لها :

ـــ أنا ذاهب.

تصرفت كالطفل، وغادرت المكان مسرعا، مغتاظا من تصرفها، فمشيت على طول شارع مونتانياك (متى ينزعون هذه التسمية ؟ ألا يعرفون أنه عسكري مجرم أباد أجدادنا مثل بيليسيي، وزرع الرعب أينما حل بجنوده المدججين بالأسلحة)، أتأمل البحر بغير لذة. ركبت الحافلة في باب الواد، ونزلت في حي سان كلو.

دخلت منزلنا، وأغلقت باب غرفتي، أقصد قبوي، وبقيت وحيدا في الظلام، أستمع لموسيقى موزارت الحزينة، وأفكر في نازلي.

كانت موسيقى موزارت تنزل على روحي الحزينة نزول المطر

على الأرض العطشى، فراحت تملؤني بمزيد من العاطفة والوله بنازلي. ولما أظلم الليل، اختفى غيظي عليها، واستولت علي عاطفة الحب مجددا.

كنت مثاليا آنذاك، متلهفا، مضطربا ومهموما. فاتتني أشياء كثيرة، وكنت بحاجة للتعويض عمَّا ضاع مني من أوقات سعيدة، وحب لم يسبق لي أن عرفته، حتى وأنا طفل صغير. لم أكن أملك الصبر الكافي، فاختلست عشق نازلي دفعة واحدة، ولم أكن أعرف النساء معرفة كافية تجعلني أتجنب الوقوع في حبالهن بتلك الكيفية التي أفضت بي إلى أنني أنتظر قدومها لساعات طويلة، تحت المطر والبرد، كما ينتظر الطفل الصغير أمه. والآن أجدني أتساءل: هل كنت أبحث عن العشيقة أم عن الأم؟ وعندما أعود إلى سنوات الطفولة أجدني قد حرمت من أمي بشكل يوحي بأن كل مأساتي بدأت من هناك. لا أتذكر أنها أغدقت علي حنانها، كنت أبتعد عنها كل سنة، حينما تضع مولودا جديدا. لما ولدت أختي غادرت صدرها، ووجدت نفسي فوق ظهرها، تربطني إليه بقطعة قماش، فابتعدت عن ملامح وجهها. وفي عز الشتاء، لما ولد أخي الذي أصيب لاحقا بمرض الصرع، تخلت عني نهائيا، فوضعتني على الأرض الباردة. أخي أخذ مكان أختي بين أحضان أمي، وأختي انتقلت إلى مكاني، وكل عام عندما تضع أمي مولودا جديدا كنت أبعد عنها أكثر فأكثر، وظل الأمر على هذه الحال طيلة ثلاثة عشر عاما. هكذا، وفي سن مبكرة، انقطعت علاقتي بجسد أمي، حرمت من نظرات عينيها، ولمساتها الرقيقة، وحُنوهَا المنبعث من صدرها. قسوة الانفصال، معاناة الوحدة، آه كم آلمتني. ليتني الآن أقدر على النسيان، نسيان كل هذه المآسي التي

خربت حياتي، لتغمرني السعادة، لكي لا يعيد الماضي نفسه، لأقدر على الإمساك بمصيري، حتى لا تعذبني نازلي، لأصمد في وجه عواصفها الهوجاء. أنسى لأن أكون قويا. لا أعرف الخوف والذعر. وأثق في نفسي. أرغب أن أرى نفسي في صورة مغايرة. مستندا على صدر أمي. نائما إلى جانبها لما تشتد عواصف المطر. أريد أن تسكنني الطمأنينة. الطمأنينة كانت في صدر أمي، وأمي كانت بعيدة عني، كنت على الأرض الباردة. أبكي. أمد يدي نحوها عساها تحملني. لكنها تمضي بعيدا، تتركني في مكاني. نازلي بعيدة مثل أمي. سادية قاسية. الطمأنينة لم أجدها عندها. أريد فقط أن أنسى. أنسى أنني كنت طفلا محروما من حنان أمه. أغرق في صدرها لكي أستعيد ما ضاع مني وأنا طفل صغير.

هكذا وقعت في غرام نازلي، ذلك الغرام القاسي، الذي هدني بدل أن يسعدني، وغرس في مزيدا من اليأس، والإحساس الفظيع بضرورة مغادرة البلاد بحثا عن العوالم الرقيقة التي طالما قرأت عنها في الكتب، وشاهدتها في الأفلام، وتخيلتها وأنا صغير. في الليل كنت أبكي وسط ظلمة غرفتي، وأنا أستمع لموسيقى راي تشارلس العذبة، وأغانيه العاطفية التي تؤجج عشقي. كنت أستمع لأغنية "لو كنت ملكي" ، ثم تتبعها أغنية "زمن البكاء"، فأزداد وَلهًا بنازلي. أبكي كما كنت أبكي وأنا صغير، فتعود بي الذاكرة إلى سن الخامسة، وأرى نفسي نائما في الصالون بعيدا عن أمي، أستمع لهول الطبيعة في الخارج. رياح قوية كانت تهب منذ آويت إلى فراشي، وفجأة توقفت، وراحت السماء تمطر. كان الرعد يدوي، أحس بالخوف، فألتصق بالحائط، أختبئ تحت الغطاء، وأبكي من شدة الخوف.

آنذاك كنت بحاجة لأمي، وها أنا اليوم بحاجة لنازلي. لست خائفا من العواصف، بل من غدر الزمن.

أبكي من أجل نازلي، فأغادر غرفتي. أخرج إلى الشارع. أمشي إلى غاية غيوت فيل. ثلاثة كيلومترات كنت أقطعها سيرا على الأقدام، تحت سماء غائمة، على طريق يطل على البحر الهائج، منفتحا على رياح باردة. أجري. من يجري ؟ الرجل، أم الطفل، أم كلاهما معا. أجري، هل ما أزال طفلا؟ هل أبحث عن الأم أم عن العاشقة ؟ ولما أصل إلى غيوت فيل أحوم حول بيت نازلي، عساني أراها، وكنت أتساءل "لماذا كلما اقترب الرجل من امرأة يعشقها، ابتعدت عنه. هل المرأة سادية إلى هذه الدرجة ؟"

ذات يوم بينما كنت جالسا في مقهى الثورة في إحدى ليالي الخريف الممطرة، بضعة أيام فقط على تعرفي على نازلي، قال لي حمو الذي يكبرني بعشر سنوات، وقد حدثته عن الآلام التي سببتها لي نازلي وعشقها :

ـــ حينما يدخل الرجل مغامرة العشق، عليه أن لا يكشف عن حبه للمرأة، عليه أن يتركها تعيش في الشك الكامل، حتى تلهث وراءه، عليه أن يقسو عليها، أن يقبض عليها بيديه كلتيهما. عليه أن يكون عنيفا معها.

كنا جالسين إلى طاولة منزوية في مكان مظلم تصله رائحة أعشاب البحر التي ألقتها الأمواج على طول الشاطئ. كنت أستمع لكلام حمو الذي بدا لي في أقصى درجات التوحش والسادية، فقلت :

ـــ يستحيل.

رشف ما تبقى من قطرات قهوة ثقيلة في كأسه التي مسكها بيديه الغليظتين، ونفث من سيجارته، وقال :

ـــ لماذا ؟

المثالية التي كنت غارقا فيها آنذاك دفعتني إلى القول :

ـــ هذه وحشية، المرأة كائن رقيق، لا تستحق هذه المعاملة...

لم يتركني أكمل كلامي، وقال :

ـــ فعلا هي كائن رقيق، لكنها سرعان ما تتحول إلى وحش لما تعثر على رجل ضعيف لا يحسن كيف يفترسها مثل إنسان بدائي.

لم أجد بما أدافع به عن موقفي، فاستمر حمو قائلا، وقد أشعل سيجارة أخرى :

ـــ أنا أحدثك من منطلق التجربة، عرفت نساء كثيرات، وكلهن لا يعشقن إلا الرجل الذي يتعامل معهن كبدائي، بصلابة وقسوة، بتوحش، فالمرأة لا تحس بالاطمئنان إلا مع الرجل الصلب القادر على إخضاعها، أما في حالة حدوث العكس، فالمرأة سرعان ما تترك هذا الرجل لأنه رقيق وحساس. الرقة في المرأة وليس في الرجل، والحساسية تُنفر المرأة، وتجعلها تنأى عن الرجل، ولن يكون بإمكانك أن تثير عاطفة امرأة إلا إذا قسوت عليها، أحيانا تستطيع حتى أن تضربها، سوف تبكي وترتمي بين أحضانك، فتضمها إلى صدرك، وفي هذه الحالة تحس بالسعادة لأنها وجدت الرجل الحقيقي، الرجل الذي يعصرها مثلما نعصر برتقالة طازجة، فيخرج منها عصيرا لذيذا يحتسيه الرجل بكل شبق إلى حد الارتواء.

لما أنهى كلامه، نهض من مكانه، وهو يقول :

ـــ اعذرني يا زينو يجب أن أغادر، أتمنى أن تجلد مع هذه الفتاة، كن معها عنيدا وعنيفا، كأنك بصدد دخول معركة ضارية.

سار بضعة خطوات، ثم عاد إلي، اقترب مني، فقال :

ـــ أترك عواطفك جانبا، وعش بعقلك، وعليك أن تدرك أنه من غير المعقول أن يخضع الرجل للمرأة بهذه الطريقة المخزية التي أنت عليها الآن. إن هذا غير مشرف. غير مشرف إطلاقا.

ذهب وتركني وحيدا وسط الظلمة. ناديت القهوجي فطلبت منه شايا آخر. جاءني به بعد لحظات، انقضت مسرعة وأنا أتأمل كلام حمو. قلت في نفسي إنه من المستحيل أن أكون ذلك الرجل الفظ، القاسي، ولكي أخفف آلامي طمأنت نفسي قائلا " أنا خاضع للحب، وليس لنازلي". هذا ما كنت اعتقده. ولما غادرت المقهى قلت في نفسي "لن أحتفي بالعنف، ولن أكون مُولعًا به". وبينما كنت سائرا إلى البيت على طول الواجهة البحرية تذكرت مقولة زرادشت "ما أحب شيئا من صميم الفؤاد إلا الحياة".

عودة إلى 2 ديسمبر1990

ليس بإمكان الإنسان الحساس أن يضمد جراحه بسهولة، وينسى همومه في بضعة أيام. غادرت المركز الثقافي الفرنسي بسرعة ذلك اليوم 2 ديسمبر 1990، واتصلت بنازلي ثانية عساني أجدها في البيت هذه المرة، مسكت سماعة الهاتف

وكان كل جسمي يرتعد، فقلت لها بنبرة مباشرة :

ـــ أين كنت ؟

لم تمسك نازلي انفعالها، فأجابت :

ـــ واش بك تكلمني بهذه الطريقة ؟

ـــ انتظرتك ساعتين في باب الواد.

ـــ لم أقدر على المجيء.

ـــ لماذا ؟

ـــ سأخبرك غدا، أنا منشغلة الآن، إلى اللقاء.

كانت تتكلم بصوت مضطرب، وكان يأتيني عبر الهاتف صياح رجل، قلت ربما يكون أخاها. ولما وضعت سماعة الهاتف، تركتني فاغرا فاه، مشدوها، جاثما في مكاني، حانقا عليها، لكن لبضعة لحظات فقط، إذ سرعان ما غرقت مجددا في عشقها، وقد غفرت لها فعلتها. كنت متشوقا إليها، متلهفا، فعاودت الاتصال بها عبر الهاتف، وأخبرتها أنني أحبها. لم أكن أتخيل أبدا أنها سوف تحتقرني وأنا أتصرف وفق هذه الطريقة الصبيانية، فتنأى عني، وتحس بمزيد من الرغبة في تعذيبي، والنأي عني. وما أن أخبرها بحبي، حتى تركن للهدوء، وقد عطفت علي، فتخبرني أننا سنلتقي الأسبوع القادم، وما علي إلا الصبر. كانت تطيل موعد لقائنا حتى تخلق في ذلك الإذعان الأعمى لها. كانت تسعى للسيطرة علي، والآن ها أنا أدرك أن الحب عندها كان مرادفا للعذاب، كانت تعذبني بحرماني منها، وكانت تظن أن تعذيبي سيضمن ولائي لها، فالحب عندها في نهاية الأمر لم يكن سوى مسألة

إذعان طرف لأخر. ولما أبديت كثيرا من العشق تجاهها، بلا لف ولا دوران، استغلت ذلك، واعتبرته ضعفا، وكانت تتلذذ برؤيتي مشتاقا إليها، سجينا لا أقوى على فرض ذاتي. والحال أنها تمكنت من طمس هذه الذات، وجعلت منها ذاتا ضعيفة. لقد تمكنت من إذلالي.

لم يكن بإمكان الإنسان المثالي الذي كنته آنذاك أن يدرك ما يحيط به بتلك الكيفية التي تجعله في منأى عن كل ما قد يصدمه، ويجعله يائسا، كئيبا. إن لاوتسي يعلمك كيف تقع في الحب، وتنساق وراء عواطفك، معتبرا ذلك نبلا إنسانيا، ولا يعلمك أبدا كيف تحذر من شر الناس. يعلمك كل شيء إلا الحذر من النساء، يرطب عواطفك ويدفع بك إلى معترك الحياة الشرس لطيفا وديعا، فتقع في الخيبة، وتنهشك الآلام. لقد استغلت نازلي مثاليتي، ورهافة عواطفي، لكي تمارس علي ساديتها وعنفها النسوي، متلذذة بذلك، متفننة، تاركة مأساتي تدوم وقتا أطول.

دخلت البيت ذلك اليوم في ساعة متأخرة، وكنت محطما. لاحظت والدتي ذلك، فقالت لي :

ـــماذا بك ؟

أخبرتها أنني متعب، فدخلت غرفتي، أمام أنظار والدي. استمعت لموسيقى راي تشارلس كالعادة، وشربت عشر قطرات من دواء منوم، فأخذني النوم خلال عشر دقائق. وفي الصباح، نهضت في ساعة متأخرة، وكانت رأسي تؤلمني، وبي رغبة في لقاء نازلي، رغبة متأججة لا تقاوم.

لما التقيت بها يوم 10 ديسمبر 1990، كدت لا أتعرف عليها. وضعت خمارا أسود على شعرها، فسألتها :

ـــ لماذا وضعت هذا الخمار ؟

مسكتني من يدي، وقالت :

ـــ هيا نمشي.

سرنا نحو شارع ميشلي، فقالت :

ـــأخي أجبرني على ارتدائه.

ـــ هل هذا هو سبب صياحه ذلك اليوم ؟

ـــ بالضبط.

ـــ وهل أصبح من أتباع الأئمة الجدد ؟

ـــ نعم.

صمتت، ثم أضافت :

ـــ أنت كذلك يجب أن تصبح منهم.

استغربت، فقلت :

ـــ مستحيل.

ـــ لماذا ؟

ـــ هؤلاء الناس أفظاظ، لا يمكن أن أكون منهم.

ـــ هؤلاء الناس على صواب.

ـــلا أظن.

ـــ لماذا ؟

ـــ من يريد أن يعبد الله، عليه أن يبادل الآخرين الحب، فالحب أسمى العبادات.

ـــ هذا كفر، الحب لله وحده.

ـــ لا، ليس كفرا، بل هو قمة التدين، الناس بحاجة للحب، عليهم أن يبادل بعضهم البعض عاطفة الحب، إن الله لا يكون راض عنا إلا إذا تبادلنا العشق، فالتواصل بين الرجل والمرأة عبر عاطفة الحب يؤدي إلى دوام الحياة، وهذا يعطي معنى لوجود الله، ولدوامه. الإله الذي فينا لا يجب أن يغيب، يجب أن يكون حاضرا عبر أفعالنا، والأفعال هي العبادات، وليس طقوس الصلاة فقط.

ـــأنت دائما هكذا، يكون الشيء بسيطا فتعقده وتجعل منه أمرا صعبا.

ـــ ليس ما أقوله صعبا، بل في غاية السهولة، الحب هو أجمل وأسهل شيء في الحياة.

لم تجد نازلي ما تقوله، وكان علي أن أستغل ضعفها في مثل هذه المسائل لأبرز تفوقي عليها، فقلت :

ـــ غالبية الناس عندنا يعبدون الله بشكل عمودي، يعتقدون أن علاقة الإنسان بالله تتم من الأسفل إلى الأعلى، من الإنسان إلى الله في السماء. والحقيقة أن الإنسان المتدين هو من يدرك أن هذه العلاقة يجب أن تكون أفقية، أي بين الإنسان والآخرين، وذلك لإرضاء الله. إن الله غني لا يحتاج من الإنسان سوى عدم إيذاء الآخرين. نحن عباد الله في الأرض، من يؤذينا يؤذي الله، ومن أحبنا أحب الله.

كنت ألقي بنفسي نحو الهلاك والعذاب دون علم مني. لم أكن أعلم حينها أن نازلي كانت تتلذذ بتعذيبي وتعمق آلامي حين تحس بفارق الهوة الموجود بين مستوانا. لم تكن تملك القوة الفكرية لفرض نفسها، فكانت تلجأ إلى ترك مزيد

من المسافات بيني وبينها حتى لا أفكر إطلاقا في الانفصال عنها يوما. هكذا كانت تفرض نفسها. كان الحب عندها أشبه بمعركة بين طرفين، وعلى أحدهما أن يذعن، ويجعله خاضعا، خانعا ، لا همة له، كانت تفكر وفق المنطق التقليدي القائل إن الرجل إذا شبع من المرأة وأدرك مدى حبها له ابتعد عنها وبحث عن غزوة أخرى. كانت تملك نظرة سلبية عن الرجل، فهو لديها ذلك الحقير الحيوان الذي لا يفكر سوى في تحقيق ما يستطيع من رغبات جنسية، ذلك الساقط إلى أسفل الدرجات، الذي لا يؤتمن، من هنا كانت تبرر تصرفاتها القاسية اتجاهي، كأن الرجل عندها ليس سوى ضرورة رغم كل عيوبه، تلك العيوب الأولى انتقلت إليها من عالم النساء الذي تربت فيه، حيث تلتصق صورة الرجل بصورة الوالد العنيف أو الأخ المتسلط.

كانت نازلي في الحقيقة ضحية هذا المنطق المتوارث عن أمها التي ورثته بدورها عن والدتها، فتمتد الظاهرة إلى الوراء عبر عشرات السنين، ربما إلى ذلك العهد التركي الذي عرف ظهور عائلتها لأول مرة حسب ما حكته لي ذات يوم، فأخبرتني أنها تنحدر من عائلة تركية، جدها الأول كان من رياس البحر حسب ما روته لها جدتها. كانت تفتخر بجذورها التركية، ولم أَكُن أُكِنُّ أي احترام لهؤلاء القراصنة الذين احتلوا البلاد من سنة 1517 إلى غاية 1830، فكانوا بمثابة استعمار يجني الضرائب، فجعلوا من أجدادنا قراصنة نعتدي على السفن الأوروبية لا غير. وحتى ذلك القرصان المهيب أحمر اللحية، بربروس، لم يكن سوى مجرم حقير. لما دخل البلدة في صيف 1517 مزهوا، منتشيا بانتصاره، ممتطيا جواده الأبيض، وقد جاء البلدة بطلب من الأهالي ليفك عنهم حصار القراصنة

الإسبان الذين أثقلوا كاهلهم بالضرائب وسوء المعاملة، فاستقر في قصر حاكم المدينة الأمير سليم التومي الذي أغدق عليه. لكن بربروس لم يأت إلى الإيالة لتخليص أهلها فقط، فقد كان مدفوعا بحلم الإمبراطورية العثمانية، وبسط نفوذها في كامل جنوب المتوسط، فأبدى نواياه التسلطية بسرعة مذهلة، كأنه لم يكن في حوزته أي وقت يضيعه، فأخذ يفكر وهو يمسد لحيته الحمراء الطويلة التي تصل إلى غاية صدره، بالاستلاء على المدينة وإخضاعها لسلطته. وذات يوم جمعة بينما كان أمير المدينة يغتسل استعدادا للصلاة، دخل عليه، مسكه من قفاه وسط بخار الحمام، فأرداه قتيلا. تسلل خفية من مكان الجريمة، وأشاع أن الأمير مات مخنوقا، فلم تحم الشكوك حوله. والحقيقة أن الجميع أصبح يهاب بارباروس، إذ استطاع أن ينشر جنوده في كل مكان. وبعد دفن سليم التومي استولى على السلطة. وفي الجمعة الموالية أحاط مسجد المدينة الواقع قرب البحر بجنوده، فقطع رؤوس كل المعارضين لحكمه، بعد أن أخرجهم من المسجد مكبلين. وبعد أسبوع آخر أرسل جنوده للمتيجة مسقط رأس الأمير المغتال، فسلط عليها عنفه، وأغرقها في الدم، تاركا الأرامل والأيتام، بعد أن وصله أن أعيان المدينة شرعوا في اتصالات مع الإسبان لاستعادة الحكم وإلقاء القرصان التركي في البحر، بعد إحراق لحيته الحمراء. أه يا بربروس.. أيها الغازي التركي.. إنك تشبه بيليسيي، لا تختلف عنه، مثله حملت الموت وشهرت سيفك، وقتلت الناس، وقمت باحتلال المدينة، وزرعت الرعب على طول الساحل.

ولما كانت نازلي تستمر في تعذيبي كل هذا العذاب المتجدد عبر الأزمنة، كنت أغرق في مزيد من اليأس. حاولت ذات

مرة، بينما كنا في قاعة شاي مظلمة بشارع إبراهيم آغا، أن أتقرب إليها، وأمرر يدي على وجهها، فإذا بها تدفعني إلى الوراء مبدية رفضا قاطعا. وأدركت مع مرور الزمن، وقد قررت الانفصال عن نازلي، أنها لم تعرف طفولة عادية. لقد افتقدت الحب وهي بعدُ طفلة صغيرة، والدها لم يكن يعامل أمها بالطريقة التي تجعلها تعرف الرجل في الصورة التي كنت أريد الظهور بها، كان عنيفا، قاسيا، يضربها، ويصيح في وجهها من أجل أشياء تافهة. حتما تكون أم نازلي قد سئمت من زوجها، فراحت تبتعد عنه، تحت وقع إحساس بالاشمئزاز والنفور، فأصبحت علاقتها به تتوقف عند ممارسة جنسية فظة غير لطيفة، خالية من تبادل المداعبات والرقة التي تجعلها تقترب من زوجها، وتسند رأسها إلى صدره، ليراودها إحساس بالاطمئنان. لم يحدث كل هذا، فعاشت غارقة في الفاقة والعوز العاطفي الذي أصبح مع مرور الزمن شيئا عديم القيمة في حياتها الرتيبة المملة التي سارت على وقع الفظاظة والقصور العاطفي، فربت ابنتها نازلي دون أن تلقنها مثل هذه الأحاسيس، بل عملت على قتلها فيها حتى لا تتعذب مثلما تعذبت هي، وقد جعلتها تعتقد أن الرجال ليسوا سوى كائنات فظة، حقيرة، قاسية لا ترحم المرأة الضعيفة، لذا لابد من إخضاعهم والقسوة عليهم، قبل أن تسنح لهم فرصة تحويلهن إلى كائنات عديمة القيمة مغلوبة على أمرها. كانت تتمنى أن ترى ابنتها تنتصر في معركتها الضارية ضد الرجل، حتى تحس بنشوة الانتقام من زوجها الذي تحول إلى مجرد رجل لا يؤتمن، فقد أخبرتني نازلي ذات مرة أنها حدثت أمها عني، فقالت لها "يجب أن تحذري منه، لا ثقة للمرأة في الرجل".

28 جوان 1991

الحر لا يطاق. كان النهار مشؤوما مثل جهنم. دفعتني أشعة الشمس للبحث عن الظل. لم ألتق بنازلي منذ أسبوعين. رغم مرور ستة أشهر على علاقتي بها، لا شيء تغير. مازلت خاضعا لها خضوعا أعمى. كنت ما أزال أعيش تحت رحمة سادية لم تخفت حدتها، ونازلي لا تزال توهمني أنها تحبني. كنت هائما في الشوارع، أمشي حيثما تأخذني رجلاي. تعبت، فتوقفت عند ساحة أول ماي، دخلت مقهى سادي كارنو، عند نهاية شارع القراصنة، بحثت عن طاولة فارغة، فعثرت عليها عند باب مرحاض تنبعث منه رائحة كريهة. كان المقهى غاصا بالزبائن، ومن على بعد خطوات مني شرع قادة الأئمة الجدد في تنظيم تجمع شعبي. كانوا يرددون عبر مكبرات الصوت أنهم يريدون قلب النظام رأسا على عقب، كما قلبت نازلي حياتي رأسا على عقب. لقد شرعوا في عصيان مدني منذ بضعة أيام، وحضر كل أتباعهم إلى العاصمة، قادمين من الأحياء الشعبية المحاذية ومن البلدات المجاورة، وحتى من القرى البعيدة المنتصبة على جبال جرداء لا حياة فيها. توسطوا المكان رغم الحر، بلحاهم الكثة، وأعينهم التي تنبعث منها القسوة متطايرة ترافق صيحات ذلك الإمام النحيف القصير القامة، صاحب اللحية غير الكثة على خلاف أتباعه. كنت أراه من بعيد واقفا على منصة عالية ملوحا بكلتا يديه، يردد خطابا عنيفا مثل عنف نازلي وساديتها. أين أضع رأسي من كل هذا العنف ؟ سأنفجر. هل من ملاذ ؟ هل الحب هو الملاذ ؟ أين نازلي ؟ أين عزلتي ؟ أين هي الطفولة ؟ آه يا أوسكار منزيرا كم كنت على صواب. رفضت أن تكبر في عالم عنيف.

كان الإمام يدعو الناس للالتحاق بجماعته وإلا سيكون عقاب الله عليهم شديدا. كان يحث سكان العاصمة على الخروج إلى الشارع ليقودهم إلى القصر العالي لطرد الحاكم وجميع وزرائه القابعين في مكاتبهم، وقد فقدوا الصلة بالناس، وأصبحوا يعيشون في عالم آخر، حتى أن سكان العاصمة من الذين غرقوا في فقرهم وتعاستهم اليومية كانوا يسردون حكايات مثيرة وعجيبة عن أعوان الحاكم النافذين في السلطة، فكانوا يعلمون أنه يستيقظ من نومه كل يوم في ساعة متأخرة، وهو يفوح برائحة الخمر التي ما زالت تنبعث حادة من فمه. لياليه كلها ساهرة، يدعو أصدقاءه للعشاء، ويسهر رفقتهم إلى ساعات متأخرة.

وقد شاع بين الناس، أنه دعاهم أمس بمناسبة حصول ابنته على دبلوم الدراسات العليا في فن التجميل من أحد أكبر المعاهد في بوسطن، وضع على الطاولات المصطفة في الحديقة المعشوشبة حول مسبح عريض تحيطه أشجار صنوبر عالية، مأكولات سلطانية، بعضها استقدمها من بلدان ما وراء البحر عبر سفاراتنا المعتمدة هناك، لحم مشوي، أكثر من مائة وخمسين خروفا، تطهى فوق الجمر، فواكه مثيرة للرغبة الجنسية من كيوي ومونغا، بيرة ألمانية وزجاجات نبيذ محلي وويسكي جي بي وجوني وولكر وكونياك، وعدة قارورات شامبانيا، اصطفت على طاولة تفوق العشرة أمتار، طاولة الكولون غارسيا التي اشتراها من أحد المزادات العلنية في مارسيليا أو في إحدى المعارض الباريسية (كان مهووسا بشراء أثاث الكولون في كل المعارض التي تنظمها الأقدام السود عبر المدن الفرنسية التي هجروا إليها سنة 1962)، اختلط كل شيء في رأسه كالعادة،

حضر السهرة، رجال أعمال، حكام البلدات المجاورة، عاهرات الفنادق والسفارات الأجنبية المعتمدة في البلاد ، دارت الكؤوس ألف دورة ودورة، امتلأت ثم فرغت، فامتلأت مجددا ، الطقس كان دافئا ، والشيخة مسعودة تغني بصوتها البدوي "جا حبيبي جا نعطيه بزولة ولا رقدة طوالي".

صعد السكر إلى الرؤوس، السكر الدافئ والمنعش والاحتكاك بأجساد العاهرات كذلك والرقص على إيقاع راي الشيخة المشين والقبيح، زوجته القابعة في مكانها ، منزوية في ركن مظلم، غاضبة، لكنها صامتة لا تقوى على الكلام، عليها أن ترضى بطريقة عيشه، ابنته غادرت الفيراندا بملابسها المثيرة، ثوب قصير ورقيق لا يصل إلى ركبتيها ، صعدت مع عاشقها رجل الأعمال صاحب الشركات المتعددة، الفتى الذي لا يتعدى عمره الخامسة والعشرين عاما ، المالك لثروة تغريه هو والدها صديق الحاكم، الذي مازال يفكر في مزيد من النفوذ ، لذلك ترك ابنته تصعد مع عشيقها إلى غرفتها ، رجل الأعمال كان سكرانا يترنح، وهي تمسكه من خصره، تمشي وتضحك ضحكات عالية، تركها والدها تصعد إلى غرفتها رغم علمه أنه سيمارس معها الجنس بتلك الطريقة المثيرة والمشينة التي تعلمتها في بوسطن وهو على علم بأدق تفاصيلها فقد قرأها في التقارير التي كان يرسلها له القنصل من هناك، بعد أن طلب منه أن يتبع خطوات ابنته ويرسل له تفاصيل دقيقة عن حياتها الخاصة، وقد استجاب الرجل الذي قضى معه سنوات الحرب السبعة في نفس الكتيبة المتمركزة في غارديماو في انتظار ساعة النصر للاستيلاء على السلطة، استجاب لطلبه دون أدنى تردد ، وتفانى في خدمته مؤجلا التقارير التي

كان عليه أن يرسلها إلى وزارة الخارجية، المتعلقة بالسياسة الخارجية للبلاد ، التي لا يولي لها أي اهتمام مبديا قدرة فائقة على تتبع تحركات ابنته، مسخرا أموال القنصلية لهذا الغرض، فأشترى كاميرات للتجسس وضعها على شرفات شقة مجاورة استأجرها من يهودي أمريكي يمقت العرب فلم يصافح صديقه القنصل، وجرت الصفقة في برودة تامة، وكانت الشقة الفاخرة تقع قبالة شقة ابنته في حي السفراء في بوسطن أين كانت تقيم مستفيدة من منحة دراسية طويلة الأمد تاركة دروسها لاهثة وراء اللهو واكتشاف أسرار الجنس والماريخوانا مع صديقها الكولومبي ابن سفير سابق تخلت عنه سلطات بلاده بعد أن أكتشف تورطه في قضية مخدرات يسحب خيوطها من بوغوتا رجال بابلو إيسكوبار وابن السفير الذي غادر الولايات المتحدة رفقة والده، لكنه عاد إليها من كوبا متخفيا على ظهر سفينة يونانية دفع لربانها حزمة من الدولارات وتعرف على الفتاة ذات ملامح الوجه العربية الطويلة القامة والرشيقة التي تتفنن في إبراز مفاتن جسدها ، و التي تنظر إلى الحياة من زاوية اللذة والمتعة تماما مثلما ينظر إليها هو بعد أن ذاق طعم السلطة ضاربا عرض الحائط بخدمة أهل البلدة، متعمدا إبعاد أبنائه عنها ، وقد اكتشف تعارض هذه الخدمة مع حبه للسلطة وميله للاستحواذ عليها وتسخيرها لخدمة مصالحه ومكانته التي بها توصل إلى إرسال ابنته للدراسة في بوسطن.

والحقيقة أنه كان يريد من وراء ذلك إبعادها عن البلدة التي تكرهها مثل والدتها ، وترفض العيش فيها مفضلة مدن الغرب الباردة المنتظمة حيث تنتشر الحرية التي يرفض أن يعطيها والدها لأهل البلدة خوفا من أن تتحول إلى وسيلة تستغلها

المعارضة للتأثير في الناس، فيفقد السلطة ومباهجها، ولم يكن منه إلا إرسال ابنته وكل أولاده إلى هناك للتمتع بما حرم منه مواطنيه فوجدت ابنته الحرية الكافية لاختلاس الحياة والملذات، وكان على علم بذلك بفضل التقارير التي كانت تصله كل أسبوع من القنصل صديقه وها هي الآن في غرفتها رفقة عاشقها الشاب الغني الذي يريده زوجا لها أو عاشقا لا يهم، المهم أن يتقرب من رجل الأعمال لتحقيق صفقات مربحة لتقوية موقعه على رأس هرم السلطة حينما تشتد العواصف وتعود حرب العصب، فهو يعلم أنه لا يساوي شيئا بدون سند يتكئ عليه.

يستيقظ من نومه إذن، بينما الناس يفدون على ساحة أول ماي، في داخلهم غضب قد ينفجر في أية لحظة، بعضهم قضى ليلته نائما في العراء، وآخرون انتظروا دورهم طويلا، دخنوا سجائر محشوة بالكيف المهرب عبر الحدود إلى غاية ما بعد منتصف الليل ينتظرون أن ينزل أحد إخوانهم ليترك لهم مكانه في الغرف الضيقة التي تنبعث منها رائحة الانغلاق لينناموا قليلا. يبقى في فراشه لا ينهض من كثرة الآلام التي في رأسه وهو يسمع نباح الكلاب في حديقة الفيلا التي يسكنها منذ أن تقرب من الحاكم وفجأة ترتفع حدة نباح الكلاب، كلابه التي اشتراها من همبورغ خلال زيارة رسمية قام بها لعقد اتفاقية تجارية مع شركة كبرى باسم الدولة أو باسم إحدى شركاته، لا يتذكر فقد اختلطت الصفقات في رأسه تداخل ما يملكه مع ملكية الدولة التي هو أحد أسيادها والكلاب ظلت تنبح فخرج أعوان الأمن المكلفون بحراسته لتفقد أرجاء الفيلا مشهرين أسلحتهم المكونة من رشاشات أمريكية متطورة وقد وجدوا أن

متسولا تجرأ على الاقتراب من الباب الرئيسي وكان رجلا في الخمسين نحيفا مثل عود ثقاب رائحته بلغت مناخير الكلاب فراحت تنبح فمسكوه من قفاه وانهالوا عليه بالضرب هشموا عظامه وكان يصيح من الألم لأن عظامه الرخوة تهشمت، فعلوا ذلك عملا بتعليمات سيد المكان حملوا الرجل غارقا في دمه إلى غاية الطريق المؤدي إلى الحي السفلي من حيث أتى كان الرجل يبكي ولم يكترث لبكائه وهو ملقى على سريره كان يبكي مثل طفل صغير من شدة آلام الضربات التي تلقاها من الحراس وقد أخذ الدم يتطاير من أنفه وراح يسيل على كامل جسده العاري والحراس مزقوا ثيابه وتصرفوا مثل كلاب مدربة على الفتك بالغرباء والمتسول أخبر الحراس أن الجوع هو الذي حمله للصعود إلى الحي العلوي قال إنه بحث عن الأكل له ولأطفاله في المزابل قال إنه يريد فقط أن يأكل وأنه لم يأت للتشويش على المقربين من الحاكم أقسم أن لا علاقة له بالأئمة الجدد لكن الحراس متوحشون وهو المتمدد بعدُ في فراشه سعيد لأنهم متوحشون سعيد لأنهم لا يرحمون سعيد لأنهم ينفذون تعليماته ولا يناقشونها وطاعتهم له عمياء فهو يدفع لهم أجرا خياليا ويشتري لهم نفس كمية اللحم التي يشتريها لكلابه فهو حريص أن يزداد وزنهم ليرهبوا أعداءه.

ما كان يجري في الخارج لم يكترث له فهو يعلم أن حراسه الغلاظ ذوي القامات الطويلة والقساة إلى حد رهيب تكفلوا بكل شيء وهم قادرون على استعادة الهدوء ولا يرحمون من يقترب من أسوار القصر العالية المحاطة بأسلاك شائكة المحمية مثل قلعة سلطان من القرون الوسطى وقال له المقاول الأمريكي الذي تكفل ببنائها بعد أن دفع له آلاف الدولارات اقترضها

من البنك يجب أن نراعي مكانتك الرفيعة فظهر أنه يعلم بأن المقربين من الحكام في البلدان الديكتاتورية يتعرضون في فترات متقطعة لعنف رعاياهم الغارقين في الشقاء فهم يختزنون رغبتهم في الانتقام من حكام وصلوا إلى سدة الحكم بعد انقلابات عسكرية ومعارك طاحنة في أروقة القصر الرئاسي.

عاد الهدوء عند حدود الفيلا، وفي ساحة أول ماي حيث كنت واقفا متعبا أفكر في نازلي التي لم أرها مدة أسبوع وقد اشتقت إليها، كان الأئمة الجدد يرددون خطبا راحت تلهب حماس أتباعهم، وقد علا الغضب وجوههم الصارمة مما يوحي بأنهم مستعدون لخوض غمار حرب ضد السيد الرئيس ومن يدور حوله، لوضع السلطة بين يدي أئمة متعطشين للحكم.

أخذ العرق يتصبب من جبيني، الحر لم يعد يطاق، فالشمس توسطت كبد السماء، كانت ترسل أشعتها مثل اللهب، ومكبرات الصوت ما تزال تبعث خطب الإمام النحيف، ترافقها صيحات أتباعه الهستيرية، أرهبني ما كنت أستمع إليه فقررت مغادرة مقهى سادي كارنو. مشيت تحت الشمس اللافحة إلى غاية الميناء، نسمات البحر الباردة أنعشتني قليلا، فتوقفت أتأمل السفن الراسية والبحر الهادئ دون متعة، فقد حالت عذابات نازلي دون ذلك، لم أكن سعيدا حتى أترك بصري ينساق وراء انعكاس الشمس على سطح البحر ولمعانه، الأمر الوحيد الذي فكرت فيه هو الرحيل عن هذه البلاد الجاحدة البائسة، وأردد تلك الجملة التي رددها دون خوليان في رواية خوان غويتيسولو "أيتها البلاد البائسة الجاحدة لن أعود إليك أبدا".

13فيفري 1992

يخيل إلينا أحيانا، وقد أوهمنا أنفسنا أننا نعيش الحب، أن المرأة التي نحبها لا نساوي شيئا بدونها، ولا نتصور أبدا أن الطمأنينة قد تغمرنا مجددا إذا تخلينا عنها، وعدنا إلى عزلتنا الأولى، فالإنسان أحيانا لا يطمئن إلا إذا انعزل عن الناس، وعاش متفردا، وحيدا بعد أن أدرك أن العالم الخارجي لا يمكن أن يمنحه الارتياح الذي يساوره وهو في غرفته المظلمة، غارقا بين دفتي كتاب، يسمو بذاته، ويحقق بالعزلة والتفرد ما لم يحققه بالحب. كنت أسعى لما تعرفت على نازلي أن أخرج من عزلتي، وأعيش الأفكار التي كونتها عن العشق، لكن الخيبة كانت لي بالمرصاد.

حينها لم أتوصل أبدا إلى الإيمان بفكرة التخلي عن نازلي رغم العذاب والآلام، بقيت متشبثا بها، فأوهمت نفسي أنها سوف تتغير يوما، وتبادلني الحب بالكيفية المتأججة التي كنت أعشقها بها، وكم كنت مخطئا، تماما كما كنت مخطئا أن حياتي بدون نازلي ستكون عديمة القيمة، تلفها الظلمة والحزن.

اليوم لما كلمتها عبر الهاتف، لم أكن أعلم أنها كانت تخطط لوضع حد لعلاقتنا الغريبة، قالت لي :

ـــ أريد أن أراك غدا.

كانت المرة الأولى التي أسمعها فيها تطلب مني أن نلتقي. ظننت أن صبري الطويل معها قادني أخيرا إلى ما كنت أحلم به، وهو أن أسمعها يوما تعبر عن رغبتها في رؤيتي، بعد أن اشتاقت إلي. جثمت في مكاني حائرا، فقلت لها من شدة ذهولي :

ـــ لماذا ؟

فقالت بعصبية :

ـــقلت أريد أن أراك.

ـــ نعم إذن.

ـــ انتظرني على الساعة الخامسة.

قالت هذا ووضعت السماعة بعنف.

في اليوم الموالي لما حضرت إلى ساحة الحكومة، متأخرة عن الموعد بنصف ساعة، كانت ترتدي حجابا أسود. كدت لا أتعرف عليها، مسكتني من ذراعي، وقالت :

ـــ تعال.

ابتعدنا عن الناس الذين كانوا ينتظرون الحافلة، فأضافت:

ـــ أريد أن أخبرك بشيء مهم.

قسمات وجهها بدت لي أكثر اضطرابا، فقلت :

ـــ ماذا ؟

ـــ سأتزوج الأسبوع القادم.

لم أصدق ما سمعته في تلك اللحظة التي اعتقدت أنها لحظة شؤم نزلت علي كالصاعقة وجعلتني أرتجف غير قادر على حمل نفسي المشلولة. أتذكر أنني رفعت رأسي عاليا إلى السماء فوجدتها محملة بتلك الغيوم الممطرة، ثم نظرت إليها، وأذهلتني برودتها. لازلت أتذكر وقوفها أمامي بقسمات وجهها التي لم تكن تعبر عن أي أسف أو حزن، فقلت لها وعيناي تمتلئان دمعا :

ـــ وأنا ؟

نظرت إلى ساعتها كأنها تريد أن تغادر سريعا، وقالت :

ـــ لا أريد البقاء هنا مطولا، خطوبتي غدا، وأمي تنتظرني في البيت.

ـــ قلت لك وأنا ؟

كلمتها بصوت مرتفع، صوت رجل غاضب، أحس أن الكون كله كان ضده. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرفع فيها صوتي أمامها، ولا أتذكر اليوم بعد مرور كل هذه السنوات الطويلة، إن لاحظ الناس الذين كانوا واقفين أمامنا غضبي أم لا، الشيء الوحيد الذي بقيت أتذكره هو أنها أمسكتني من ذراعي ثانية، وقالت :

ـــ خفض صوتك.

ثم أضافت :

ـــ أنت لست مستعدا للزواج...

لم أتركها تكمل كلامها، فقلت :

ـــ سأعثر على الوظيفة، وأكون مستعدا بعد سنة...

ـــ لا أستطيع انتظارك إلى الأبد.

ـــ والحب الذي بيننا.

ـــ أنا أريد أن أتزوج، أما الحب فلا أفكر فيه.

ـــ أنا كذلك أريدك زوجة لي.

ـــ أنت تحلم بهذا، وفي الواقع ليس بإمكانك تحقيق ذلك.

ـــ ومن هو هذا الرجل...

ـــ تعرفت عليه في حفل زفاف.

ـــهل هو من فرض عليك الحجاب ؟

ـــ هذا لا يعنيك.

ـــ لقد انتهى كل شيء إذن ؟

ـــ نعم.

صمتت برهة، ثم قالت :

ـــ وداعا يازينو.

نطقت بها، وذهبت. أتذكر أنها لم تصعد إلى الحافلة المتوقفة أمامنا، بل توجهت إلى محطة التاكسي، واختفت بين المارة، فبقيت وحيدا، جاثما في مكاني لم أقو على الحركة من شدة الذهول. أحسست حينها أنني غارق في مزيد من المأساة لا محال، ولم أتصور أبدا أنني تخلصت من كابوس حول حياتي إلى جحيم، تركت نفسي أنساق وراءه بسبب أوهام مخادعة.

هكذا انتهت علاقتي بنازلي، تألمت بضعة أيام، فأدركت رويدا رويدا أنني تحررت منها، وما كنت اعتقده الحب، لم يكن في الحقيقة سوى وهم بقيت متشبثا به، كنت كالغريق في الحياة، شخصا يريد الخروج من عزلته بعد أن سئم منها، فتركت نفسي تنساق وراء امرأة سادية عنيفة متسلطة لم تعرف الحب لكي تبادلني إياه. صحيح أنني لم أعرف الحب مثلها وأنا طفل صغير، لكن سنوات العزلة التي قضيتها بين الكتب، جعلتني أعرف ما هو، صحيح كذلك أنني كنت أملك أفكارا مجردة عنه، لكنها كانت كافية للحيلولة دون انزلاقي في العنف والسادية التي اكتشفت لاحقا أن نازلي كانت تتصرف وفقها معي.

كنت ضحية أوهامي إذاً، والأوهام يكونها الإنسان التائه ليمنح نفسه القدرة على الاستمرار في الحياة.عدت إلى نفسي لكي أتخلص من الخراب الذي ألم بي، فوجدت عزائي في العزلة. كم كانت تعذبني في البداية قبل أن تصبح ملاذي الآمن. لقد فرضت نفسها علي فرضا، منذ كنت صغيرا، فقد كان والدي ميالا للصمت. صمتٌ لا أعرف سببه. إلى اليوم لا أعرف لماذا كان يفضل السير وحيدا في الغابة الواقعة قبالة حي سان كلو، أو الإبحار على ظهر قاربه بعيدا عن اليابسة. لست أدري لماذا كان يبتعد ليجد نفسه وحيدا. لكن ما عرفته مع مر السنين، وأصبح يقينا بالنسبة إلي، هو أن أبي كان رجلا حزينا. لقد تيقن أن اليأس سوف يظل يلازمه مدى حياته.

لكن لماذا يحزن إنسان في السنوات الأولى من الاستقلال ؟ لماذا ولدت ثورة عظيمة رجلا صامتا مثل والدي، أصابه القنوط، توحي ملامح وجهه الحزينة بأنه يعيش في بلد كارثي. هل حزن لأن الكولون غادروا البلاد; كما حزن كثيرون ممن عاشوا حياة هادئة خلال سنوات الحرب ؟ لا أظن، ولا أشك في وطنيته، فقد كان مسبلا خلال الحرب الكبرى، يصعد الجبال الوعرة ويقطع الوديان بين آث منديل وأكفادوا وفي جيوبه رسائل المحاربين، ينقلها من مركز قيادة إلى آخر. حتى السيدة بويي التي عاش عندها بعد أن غادر آث منديل، لم تكن ضد الثورة. كانت سيدة نبيلة، شجعته على الوقوف في صف المحاربين. وكان والدي حينما يصطاد سمك الأعماق من باجو أو روجي الصخور، أو حبات من الميرو وسمك الدوراد، كان يدق بابها، ويعطيها إياها، بسعادة، فتطهيها في صلصة الطماطم الممزوجة بالتوابل جميعها من الكمون والفلفل

الأسود وبضع أوراق من الرند وقطع رقيقة من الليمون، والثوم المهروس، والمعدنوس، والبصل المقلي في زيت الزيتون على نار هادئة، وتضيف قطرات من الخمر الأبيض مما يعطيها إمكانية الاحمرار بسرعة داخل الفرن، ويكسبها مزيدا من اللذة. وبمجرد ما تنتهي من الطهي تنادي والدي الذي كان يسكن عندها في بيت الخدم، لتناول العشاء رفقتها، وكان يلبي دعوتها بكثير من الغبطة والحبور، فيجلس قبالتها، وقد ارتدى ملابس نظيفة تليق بالمقام، فيأكل السمك أمام أنظارها، وقد راوده إحساس بالفخر لمجالسة هذه السيدة الأنيقة التي عاملته كإنسان وليس كأنديجان بائس.

بدأ والدي يتغير حسب ما علمته من أحد الصيادين بعد أن غادرت السيدة بويي البلاد عقب الانقلاب العسكري الذي قاده عقيد نحيف لا يحمل أحداً في قلبه. وقالت عنه السيدة بويي وهي تلقي آخر نظرة على حي سان كلوا " سيجلب لكم الخراب". وبعد أن صمتت برهة أضافت وهي تذرف الدموع التي راحت تنساق على وجهها الدائري "هناك رجال أحسن منه في هذا البلد".

حزن والدي لرحيل السيدة بويي. استبد به الألم، وذاع صيته في كامل أرجاء البلدة، فاضطر مسؤول الحزب لكتابة تقرير مطول عنه أرسله للمكتب المركزي على مستوى العاصمة، ومنذ ذلك اليوم أدرج اسم والدي ضمن خانة المواطنين من الدرجة المنحطة ممن يشدهم الحنين للاستعمار. والحق أن والدي كان يحن لشبابه وللسيدة بويي لا غير.

لم يكترث والدي لهذه التهمة الجارحة، فصمد لرياح التشويه التي أرادت النيل منه. كان ينزل إلى الشاطئ يركب

قاربه ويبتعد إلى عرض البحر، وحيدا مفضلا العزلة عن الناس الذين صدقوا التهمة التي لفقها له رجال الحزب. كان يعثر على المتعة، ومنه تعلمت أن البحر هو الرفيق الأبدي لكل من تعرض للجراح. وبعد مرور سنوات طويلة، تغير خلالها حي سان كلو، وعم الخراب، وتدهورت الأوضاع بشكل يوحي أن بني هلال مروا مجددا على الحي، فاقتلعوا الأشجار، وأتلفوا الورود التي كانت تزين مداخل المنازل، وابتنوا أسوارا طويلة من الإسمنت، وكسروا السياج الخشبي الذي يحيط بكل بيت، فاختفت رائحة الياسمين التي كانت تنبعث مع مطلع النهار، وحلت محلها رائحة العفونة المنبعثة من مزابل راحت تتراكم عند مدخل الحي وأمام كل بيت، وفقد الحي كل تجانسه العمراني ورونقه، وأصبح الناس من الشيوخ والصغار والنساء والفتيات والعجائز يبدون الحنين لذلك الزمن الذي مضى، زمن السيدة بويي حينما كان سان كلو حيا نقيا، تطلى جدرانه كل صيف بالجير الناصع البياض، وأضحى الجميع، وليس والدي فقط، يتذكرون تلك المرأة العجوز التي غرست أربعة وأربعين شجرة صفصاف في كل أرجاء الحي، بكثير من الإبانة، ويتحسرون لمغادرتها البلاد، فقد يبست أشجار الصفصاف مع مر السينين، واختفت الظلال في الحي. وذات يوم تجرأت على سؤال والدي عن أسباب حزنه وصمته، فقال : "البلاد كلها فقدت معالمها، لقد عمت الفوضى، وانتشر الخراب. لم أتعود على مثل هذه الحياة، وليس من السهل مسايرة هذا الزمن الموبوء. كنت أظن أن الثورة ستحررنا، لكن ذلك لم يحدث. لقد جعلت منا أناسا تعساء، وتبخرت أحلامنا". وفهمت من والدي أن التعاسة لا تلحق سوى من عاش زمنيين، وشغل باله بالمقارنة بينهما. بين الماضي السعيد، حتى وإن كان ماضيا كولونياليا، وحاضرا

تعيسا حتى وإن كان مخالفا تولد من الاستقلال، وتميز بكونه حاضرا وطنيا. وللأسف أضاف والدي حينما سألته "كان الماضي أحسن بكثير".

12جانفي 1993

تخلصت من حب نازلي المزيف بفضل العزلة. تماما مثلما تخلص والدي من محاصرة رجال الحزب، ومن الخراب الذي عم من حوله. كنت مثل من يعود إلى أصله. العزلة لم تعد تؤلمني، بل أصبحت مصدر سعادتي وطمأنينتي، أتذكر أنني أصبحت أقضي ساعات طويلة وأنا في قبوي وقد صار غرفتي منذ أن كان عمري أربعة عشر عاما. كان يقع أسفل بيتنا، وقد فضلته على الصالون الذي كنت أنام فيه لكي أبتعد عن أنظار والدي وصياحه المتواصل، وقد اتخذت هذا القرار بعد أن وقعت تحت تأثير دوستويفسكي وتعاطفي مع كثير من شخوصه الروائية الذين كانوا يعيشون في مثل هذه الأماكن المظلمة التي لا يصلها الضوء، لكنها شخصيات مترفعة عن الحياة الساقطة التي كانت غارقة فيها مدينة سان بيترسبورغ.

كنت سعيدا بكتبي وفخورا بمحاوراتي للفلسفات الكبرى، لا أغادر قبوي إلى الخارج إلا للضرورة القصوى، مثل أن أرافق أمي بطلب منها عند طبيب الأمراض العقلية حيث يتابع أخي علاجه منذ سنوات طويلة، وكانت أمي تستنجد بي بسبب رفض والدي مرافقتها، أو حتى التكفل بأخي الذي أصيب بمرض الصرع منذ أن كان عمره خمس سنوات، الأمر الذي سبب له تأخرا عقليا فظيعا، فلم يتقبل والدي مرضه، وبقي يتهرب

منه، تاركا مسؤولية التكفل به لأمي وحدها. أما إذا تركتني أمي لحالي، فإنني أبقى في غرفتي، لا أبرحها أبدا.

أمي هي التي كانت تنزل لي الأكل على الواحدة ظهرا، ثم في الليل عند حدود الثامنة، وكانت تتألم لحالي كثيرا، وفي كل مرة كانت تطلب مني أن أخرج لكي أبحث عن وظيفة في أي مكان، ثم أصبحت تترجاني أن أخرج إلى الشارع لكي أغير الجو وأرى ضوء النهار كما كانت تقول، وقد بدا الحزن على محياها، وكنت أخبرها أنني سعيد في هذا القبو، ولست مستعدا لمغادرته، فظنت أنني أصبحت مجنونا، وبعد أيام عثرت تحت فراشي على حرز صغير فيه خربشة مضحكة باللغة العربية، وفهمت أن أمي هي التي وضعته هناك.

بعد سنوات طويلة قرأت في رواية بول أوستير "ابتكار العزلة" أن هيدرلين قضى سنوات عمره الأخيرة لا يبرح غرفته، دون أن يؤثر ذلك في قدراته العقلية، بل لم يكن بإمكانه أن يعيش في مكان آخر غير غرفته، فالانسحاب إلى مكان مغلق، لا يعني الجنون، كما لا يعني الصمت، بل هو عودة إلى الذات، التحدث إليها، ومثلما عاد هيدرلين إلى الحياة بواسطة غرفته، تمكنت بدوري من التخلص من آلام نازلي بواسطة غرفتي وسنوات العزلة التي قضيتها فيها. لقد طهرتني العزلة من كل إحساس بالحقد راودني بعد ما فعلته بي نازلي.

والحال أنني توصلت إلى وضع حد لعلاقتي مع الآخرين. فضلت العزلة في قبوي بسبب ما آل إليه حال الناس من حولي. الأئمة الجدد والإخوان بسطوا نفوذهم، وأثروا في أهل الحي بشكل يبعث على القلق. الجميع ترك لحيته تنمو، لكنهم حلقوا الشارب. كأنهم فقدوا رجولتهم. وأصبح التردد على

المسجد موضة للتباهي. انتشرت لغة جديدة في حي سان كلو، وظهر سلم قيم جديد. كان يكفي أن يترك الرَعاع لحيتهم تنمو، ويضعوا الكحل على رموش أعينهم، ليصبحوا أسياد الحي الجدد. يقودون الناس إلى التجمعات السياسية التي أصبحت متاحة. يصلي بهم أئمة عادوا حديثا من حرب أفغانستان. يخطبون فيهم، رغم جهلهم ورعونتهم. كنت أرى أن أمور الحي تسوء، وتنحو نحو الكارثة، مما زاد من حدة تشاؤمي. فقدت الإيمان بغد هادئ، فالأوباش إذا تحولوا إلى أسياد الحي، سيحل الخراب حتما.

لم أحس بالاطمئنان وأنا أرى حي سان كلو يتحول إلى مكان أسياده من رعاع الحي الذين كانوا يشكلون فيما مضى أفراد عصابات المنحرفين الذين كانوا يعاقرون الخمرة ويجلبون إلى الحي العاهرات والمخنثين فيتبجحون بذلك، مما عمق من عزلتي، فأصبحت أضمر الكره اتجاه أهل الحي الذين تعاطفوا معهم (ربما بدافع من الخوف) بمجرد أن تركوا لحيتهم تنمو وأصبحوا يترددون على المسجد، وقد غفروا لهم فجأة رعونتهم فانساقوا وراءهم.أدركت أنهم يعيشون بلا ذاكرة، لهذا كرهت الرعاع والأوباش وأهل الحي والوضع الجديد، ووجدت في العزلة ملاذي.

علمت لاحقا أن سليمان عديم اللقب، ابن يمينة بنت المحجوب، الذي يسميه أهل الحي سليمان ولد يمينة، أصبح أحد قادة جماعة الإخوان. الرجل لا يعرف والده. هو الابن اللقيط كما يعرف الجميع. ولدته أمه بين الأحراش في قرية جبلية بعد أن حملت من رجل مجهول. الشيء الوحيد الذي يُعرف عنه، هو أنه دخل البلاد مع الحرب الأهلية في صيف 1962، قادما

من غارديماو رفقة كولونيل جيش الحدود. لم يتمكن من إغواء يمينة بنت المحجوب ببذلته الكاكي، فاغتصبها، بعد أن حقد على والدها الذي أخفى في بيته محاربا جريحا عثر عليه قرب النهر.

جرها الرجل المجهول إلى الأحراش عند منتصف النهار، فهتك عرضها تحت الشمس اللافحة، ثم اختفى عن أنظارها، وهي ما تزال تتألم من أوجاعها، ودمها كان لا يزال فاترا. أغمي عليها بعد ما جرى، ولما استفاقت وجدت نفسها وحيدة. فتحت عينيها على السماء، تنورتها مرفوعة إلى غاية بطنها، وتكاد تكون عارية. كان الدم ما يزال يسيل من فرجها. وضعت يديها على وجهها المغروس في الوحل، وغرقت في بكاء مر، متشنج. لن تعود إلى أهلها. قررت حمل نفسها وعارها بعيدا عن القرية. سارت بين الأحراش والغابات، تقتات من الأعشاب. تتوقف أحيانا عند بعض المنازل الكولونيالية التي استولى عليها القرويون حديثا. تستجدي عطفهم. فيمنحونها الأكل، وسرعان ما تستمر في سيرها إلى حيث لا تدري. لما تظلم الدنيا تبحث لها عن مكان آمن تنام فيه. وفي الصباح تسير مجددا إلى حيث تحملها رجلاها المتعبتان. لقد قضت الصيف بكامله، وهي على هذه الحال، تسير النهار بطوله، وتنام ليلا.

قطعت المسافات، والعار ينخر نفسها. هكذا حطت رحالها بحي سان كلو. امرأة مطعونة، وفي أحشائها طفل لقيط. دقت باب الحاج البشير. طلبت أكلا. كانت تبدو منهكة، خائرة القوى، غير قادرة على حمل نفسها إلى أبعد من سان كلو. لما فتح باب الحاج البشير بيته، كان الليل يقترب، ونسمات البحر الباردة كانت توحي بأن الخريف على الأبواب. امرأة نحيفة

مثلت أمامه. ترتدي ملابس رثة. مشعث شعرها الأسود. عيناها غائرتان. ظن الحاج البشير أن المرأة الماثلة أمامه مصابة بالمس. أدرك لما تكلمت أنه كان مخطئا. بدت في كامل قواها العقلية. "أنا جائعة"، أخبرته وهي تبكي. الحاج البشير رجل طيب. أدخلها إلى الحديقة تحت وقع أمطار خفيفة شرعت في التساقط بالكاد. أجلسها على كرسي إسمنتي، تحت شجرة ليمون وارفة. نادى زوجته التي ما أن وصلت ورأت المرأة حتى رأفت بها. أسرعت إلى المطبخ، فأحضرت لها أكلا، ولما انتهت منه سألها الحاج البشير مختار، قائلا :

ـــ من أين جئت ؟

أجابت :

ـــ من دوار القبلي.

وبعد أن أخبرته بما جرى، وبما فعله بها رجل غارديماو، قال لها :

ـــ البلاد كلها وقعت ضحية هذه الجماعة.

وأضاف قائلا :

ـــ بإمكانك أن تسكني معنا. يوجد وراء الفيلا منزل من غرفتين كان يشغله الخدم، زوجتي بحاجة لامرأة تساعدها.

استقرت المرأة في حي سان كلو، واشتغلت عند الحاج البشير مختار خادمة. ولما حل ربيع عام 1963 وضعت مولودها، فسمته سليمان، وفي البلدية سألها الموظف عن والده، فطأطأت رأسها من شدة الحياء، فكتب الموظف في دفتر أصفر : سليمان عديم اللقب.

لما صاح الطفل اللقيط صيحة الولادة، تذكرت أمه صوت رجل غارديماو الذي ارتمى عليها تحت شمس الصيف اللافحة،

فضغط عليها بجسده القوي، وسيطر عليها، ثم توغل في داخلها عنوة. وبعد أن ألقت أول نظرة على الرضيع، قالت :

ـــ يشبه والده.

وأضافت، وهي ترتعد من شدة الخوف :

ـــ هذا نذير شؤم.

لما بلغ الطفل سن الرابعة سأل أمه عن والده. أخبرته أنه ميت. ولما دخل المدرسة بدأ يحس أنه يختلف عن الآخرين. أصبح يدعى سليمان عديم اللقب. في الباحة الخلفية للمدرسة، كان أول من ابتدع لعبة قتالية عنيفة. كان يقسم الأطفال إلى فريقين، يعلن أحدهما الحرب ضد الآخر، ويتصارع أطفال الفريقان بضربات قدم تقع كيفما كان، على البطن، أو على الأماكن الأكثر حساسية، وتكون الضربات في الغالب مرفوقة بصيحات متشنجة، تطرح من يتلقاها أرضا، وتجعله يتلوى من الألم.

ومع مرور السنين، وبلوغه سن المراهقة، بدأ عدم امتلاك سليمان لقبا عائليا يثقل كاهله، فتعمقت عقدته، وشرع في إبداء ميولات منحرفة، الأمر الذي قاده إلى مغادرة المدرسة باكرا. لم يكن يحتمل الجلوس إلى طاولة خشبية من الصباح إلى المساء، وقلة ذكائه كانت تمنعه من تعلم أدنى الأبجديات، لم يكن يملك أي حساسية ولا فضول تجاه الحروف والأرقام التي يدونها المعلم على سبورة سوداء، وكان ينتابه إحساس بالاختناق، وهو بين جدران قاعة الدراسة.

لما بلغ سن العشرين، أدرك أنه لقيط. كره أمه، وحقد عليها. دخل السجن لأول مرة، وهو دون العشرين، بعد أن حاول سرقة

مجوهرات زوجة الحاج البشير، فانكشف أمره.في السجن تناول المخدرات، وأصبح يستهلكها بإفراط. كان أول من أدخلها إلى حي سان كلو بعد أن غادر السجن في خريف عام 1983.

لما رأته والدته لأول مرة وهو يدخل البيت عائدا من سركاجي، ارتعدت فرائصها. سقط دلو الماء الذي كانت تحمله من يدها، وظنت أن رجل غارديماو هو الذي دخل البيت. كان الشبه بينه وبين والده كبيرا إلى درجة يصعب التمييز بين الطفل ووالده. ملامح وجهه أصبحت قاسية بشكل مخيف، ولون بشرته تحول إلى الأسود، كان يبدو في هيئة رجل شرير بشعره الكث وأسنانه التي تلطخت ببقع بنية من جراء الإسراف في التدخين، أما وجهه فكان يبدو خسيسا، وعيناه حادتان قبيحتان.

لما دخل البيت لم يسلم على أمه التي تسمّرت في مكانها، تحدق فيه بارتياب كأنه ليس ابنها. سألته إن كان جائعا، فهز رأسه قائلا بصوت خشن :

ـــ لست جائعا.

تركت يمينة ابنها، ودخلت غرفتها.

ساءت العلاقة بين الأم وابنها إلى الحد الذي أصبحا لا يتبادلان فيه إلا بعض الكلمات الضرورية فقط. يمينة أحست أن الشبه الذي بين ابنها ووالده سيظل يذكرها بعارها. كانت كلما لمحته تذكرت أحراش الغابة والشمس اللافحة ورجل غارديماو وهو يرتمي عليها كوحش، فتحدث فيها الذكرى مزيدا من الآلام، فتعود إلى غرفتها، وتقفل الباب على نفسها. وفي السنوات الأخيرة من حياتها أصبحت تتذكر عائلتها، والدها الشيخ المحجوب، وإخوانها، وتتساءل ماذا أصبحوا، لم ترهم منذ سنوات عديدة، فاشتاقت إليهم، كانت تتمنى أن تعود

إلى دوار القبلي لزيارة قبر أمها التي ماتت خلال حرب السبع سنوات، لكن ماذا عساها تفعل ؟ العار ظل يلازمها، ولو عادت بماذا سوف تبرر فرارها من البيت طيلة هذه السنوات الطويلة ؟ ماذا تقول لأهلها ؟ كانت و هي غارقة في عزلتها تفكر في زيارة دوارها ولو متنكرة، لكن الخوف كان يكبلها دائما، فالناس في القبلي يتعرفون على بعضهم بواسطة رابطة الدم، فكانت تتراجع عن كل مغامرة قد تفضحها أمام أهلها. حتما يكون الجميع قد سلم بموتها، ربما قالوا أن تيار النهر أخذها، كما أخذ الكثيرين من قبلها، فالموت هو أحسن ما يخفي العار.

بعد خروجه من السجن، ارتمى سليمان عديم اللقب بين أحضان عاهرة تشتغل في ملهى كوبا كابانا. كانت تسكن في غرفة ضيقة تطل على البحر في الحي الإسباني القديم بغيوت فيل. عاش معها ثلاث سنوات، كان يحميها من اعتداءات الرجال السكارى، والذين يرغبون في مضاجعتها دون مقابل، وكانت تمنحه جزءا من مدخولها اليومي. وقبل أن يصبح أحد أتباع الأئمة الجدد، دخل السجن ثلاث مرات متتالية، فبعد السنة التي قضاها في سركاجي بسبب السرقة، قضى سنة أخرى بعد أن ألقي عليه القبض بتهمة الترويج للمخدرات، ثم سنتين أخريين بتهمة الاعتداء ومحاولة القتل. ضرب الراقصة ذات ليلة، وكاد يقتلها. أخبرته أنها قررت التخلي عنه بعد خروجه الثاني من السجن، فاستشاط غضبا وضربها حد الموت، فعاد للسجن بعد أن بلغت الشرطة بما فعله بها.

الدخول الثالث للسجن أثر في مجرى حياته. تعرف على سجين سياسي يدعى قزويني. كان من أتباع جماعة الإخوان

التي تمردت على السلطة بعد رحيل الديكتاتور، ودخلت معها في معارك طاحنة على مشارف العاصمة. ألقي عليه القبض بعد القضاء على قائد الجماعة المدعو بويعلي الذي كان يحلم بإقامة دولة إسلامية. في السجن تحول قزويني إلى داعية. أثر في كثير من المساجين. أغلبهم اقترفوا جرائم القتل، وعلمهم الصلاة، ثم استمالهم إلى أفكاره. وكان يعلم أنهم سيشكلون جند الله مستقبلا. كان يملك حقدا دفينا تجاه السلطة، وتداولت الألسنة في أروقة سركاجي أنه ابن حركي قتل المحاربون والده في مطلع صيف 1962. قيل إنه أنزل رفقة عشرات الحركى مثله من السفينة التي كانت بصدد نقلهم إلى فرنسا. وقيل إن المذبحة وقعت بتواطؤ من عقيد فرنسي تخلى عنهم بدون شفقة، رغم علمه أنهم سيذبحون مثل الخرفان من قبل المحاربين. وذلك ما كان فعلا، نقلهم المحاربون إلى الملعب البلدي، وأجهزوا عليهم. قيل إن الدم سال إلى غاية وسط المدينة، ومن كثرة الحر تعفنت جثثهم قبل أن توارى التراب في مقبرة جماعية مجهولة. أمه هي التي أخبرته عن ظروف مقتل والده، قالت له "قتل والدك بطريقة شنعاء، عذبوه، سلخوا لحمه، ووضعوا فيه الملح، ثم ذبحوه، وقطعوا جسده أطرافا، وضعوه في كيس أسود، وحملوه أمام البيت وتركوه هناك". ولما خرجت لترى الكيس الموضوع على عتبة البيت وجدت رأس زوجها وباقي أطرافه. هكذا أصبح قزويني يختزن الحقد والضغينة تجاه المحاربين. لم يتمكن من فعل أي شيء في عهد الديكتاتور الذي حكم البلاد بقبضة حديدية تفوق قبضة ستالين وسلاطين الشرق المستبدين. لم تتغير الأمور إلا بعد وفاة الديكتاتور. السيد الرئيس الذي جاء بعده أبدى ليونة تجاه المعارضين السياسيين، فدخلت البلاد عهدا جديدا، وأصبح بإمكان الناس أن يتحدثوا في أمور

السياسة، دون أن يداهم الأمن العسكري بيوتهم بعد منتصف الليل. ليونة الحاكم الجديد اعتبرها الإخوان ضعفا، فأعلنوا تمردهم على السلطة، وحملوا السلاح. وفي الأيام الأولى من التمرد التحق بهم قزويني، بتأثير من أمه.

في تلك الفترة قررت مغادرة قبوي، و قد مرت تسعة أشهر على عزلتي. لحيتي نمت طويلة، شعري أصبح كثا، وازداد وزني كثيرا. لما رأتني أمي أخرج إلى الشارع، فرحت، وحينما رجع والدي إلى البيت عند منتصف النهار، أخبرته بما جرى، فهز رأسه، وطفق يأكل من الصحن الذي وضعته أمامه، دون أن ينطق بكلمة.

في الشارع وجدت سعيد الزاهي يخطب في الناس، وسليمان عديم اللقب (قيل لي أنه غادر السجن) يحرسه عن قرب. التف حولهما أهل الحي، كأنهم جماعة من المريدين. كانوا واقفين وسط الحي تحت شجرة الصنوبر العتيقة التي نخرها السوس، وفقدت أغصانها منذ زمن طويل (قيل إن تدهور حال الشجرة الظليلة التي تمد أهل سان كلو بالظل خلال أيام الصيف القائظ، تدهور حالها بعد رحيل مدام بويي، فهي آخر من كان يسقيها ماء كل يوم عند غروب الشمس).

كان سعيد الزاهي يرتدي لباسا أفغانيا، لحيته طويلة تصل إلى غاية بطنه، وكان يضع في جيب سترته عود سواك وقرآنا من الحجم الصغير.

عرفت لاحقا أنه أصبح يلقب بأبي عبيدة. استغربت كيف يتحول شخص مثله من رجل يلتهم الحياة التهاما، يعشق امرأة، متفتح على الملذات، يستمع لأغاني عمر الزاهي (من هنا لقب بالزاهي) ويردد معه أغاني الخمرة والكأس العاشرة

وما تلاها، وسكر العشق اللذيذ، وسهر الليالي، يتحول إلى أحد أتباع الإخوان. عرفت لاحقا أنه أحرق كل أشرطة مطربه المحبوب، وروج بين أهل الحي أنه كان على ظلال، وقد تاب الآن إلى ربه، فتردد على المسجد عله ينسى هموم العشق وخيبته المؤلمة، إذ تزوجت عشيقته من رجل غيره، أغواها بالحياة في باريس، حيث استقر منذ عشر سنوات، فهجرت رغم أنها أقسمت يوما بأنها لن تعشق رجلا غيره، وتركته وحيدا يعاني من حرقة العشق، يتجرع آلام الفراق المرة، وظل تائها إلى أن دخل المسجد، يكثر من الصلاة ويختزن الحقد على الفتاة التي عبثت بعواطفه، وخانت رابطة الحب المتأججة التي كانت بينهما، وهكذا ترك عالم المادة الذي فضلته عاشقته، واختار عالم الصلاة، فترصدته جماعة الإخوان، ولقنته أن نكران الحياة المادية والمتعة، هو طريق الجنة والخلاص الوحيد.

هاهو الآن يقف أمامي بقامته القصيرة، وجسمه الممتلئ. لما اقتربت منه، قال لي :

ـــ وأنت يا سي الجامعي ألا تلتحق بنا.

قلت له : من أنتم، فأجابني :

ـــ نحن الحق وصوت الله. والله معنا.

نظرت صوبه نظرة احتقار، ومشيت في طريقي صوب البحر، فسمعته يضيف مهددا :

ـــ ستلتحق بنا يوما ولو بالقوة، نحن أصحاب حق.

اندفع سليمان عديم اللقب نحوي، وقال بينما الشرر ينبعث من عينيه المكحلتين :

ـــ كل الناس سيلتحقون بنا.

أتذكر أنني حدثت نفسي قائلا "لن ألتحق بالأوباش أبدا"، وفعلا لم ألتحق بهم. كنت أرفض أن يموت صوت الله في نفسي، لم أكن أرغب في تعويضه بلحية كثة متسخة، وبقميص تنبعث منه رائحة العرق الممزوجة بالمسك، فأنا إنسان حساس سيظل صوت الله في أعماقي، مهما حييت.

تذكرت وأنا أسير صوب البحر، الطفل العنيف الذي كانه سليمان عديم اللقب فيما مضى، تذكرت تعاركه، خصوماته المتتالية في باحة المدرسة، ومعلمة اللغة الفرنسية التي هددها ذات مرة بشفرة حلاقة، وأمه التي انتحرت لما كان في السجن، بعد أن ضاقت ذرعا بحياتها بعيدا عن أهلها. فتساءلت أي إنسان هو هذا الشخص الذي رفض زيارة قبر المرأة التي أتت به إلى الحياة ؟ ومشيت دون أن ألتفت ورائي، فضلت رؤية البحر الذي اشتقت إليه، على الرد عليه، وقلت بيني وبين نفسي :

ـــ اللعنة على رجل غارديماو.

لما وقفت أمام الشاطئ، تنفست هواء البحر، وأدركت أن عزلتي انتهت، ونازلي أضحت قصة منقضية، أما قصة سليمان عديم اللقب عضو جماعة الإخوان، وسعيد الزاهي المدعو أباعبيدة، فقد بدأت تلك الأيام.

الفصل الثاني

1.

قضيت طفولتي في عالم مخيف. عالم لا يترك أي مجال لما قد يعطي الطفل الصغير الحساس الحالم الذي كنته، إمكانية للإحساس بالطمأنينة. كان العنف من حولي هاجسا مخيفا بالنسبة لي، جردني من هدوئي الطفولي، ولحظات الفرح التي كان من الواجب أن تشكل مجالي الطبيعي. أصبحت أخاف، فقد سكن الرعب طفولتي، خربها، ولم يترك لي أي مجال للفرح والغبطة. كان الرعب يدفعني للعزلة، للانطواء على الذات، والانغماس في التخيل. وكان هذا في حد ذاته جحيما لا يطاق، لقد فقدت طريق الطمأنينة، وأنا لا أزال طفلا يافعا، وكأن الحياة أصبحت لعنة أصابتني، لعنة مكتوبة على بواطن الأشياء.

ما أزال أتذكر، حتى وإن كان ذلك بعيدا، بعيدا جدا، في الزمن الغابر.

أضرمت جدتي النار في كانون من الطين، وقالت وهي تبتسم :

ـــ الآن ستحس بالدفء.

كنت صغيرا آنذاك. كانت جدتي على قيد الحياة، ولم يكن عمري يتجاوز العشر سنوات. كان ذلك في الزمن البعيد. البعيد جدا. ذكرى تلك الأيام ما تزال عالقة في ذهني، رافضة أن تمحى. فقد رسخت إلى الأبد. التصقت بها ولم تبرحها أبدا. إن مثل هذه الذكريات مراوغة، تتظاهر بالاختفاء أحيانا، تنام ردحا من الزمن في سراديب الذاكرة، لكنها سرعان ما تعاود الظهور مجددا، كأنها حدثت بالأمس، فتطفوا إلى السطح ثانية، وتعود لها الحياة لترافقنا مرة أخرى على دروب الحياة الوعرة والقاسية.

كانت تمطر في الخارج. تمطر مطرا متواصلا. كان الكون من حولنا كئيبا، حزينا. كنت واقفا عند عتبة مطبخ جدتي، أنظر إليها وهي تضع حطب أشجار البلوط في الكانون الطيني، ثم تصب عليها قطرات من الكحول، وتأخذ عود ثقاب فتشعله بحركة واحدة، وتلقيه على الحطب، فتشتعل النار دفعة واحدة، وتتصاعد ألسنتها متأججة. رحت أتطلع إليها، بينما غرقت جدتي في تأملاتها.

طلبت مني أن أبتعد عن النار قليلا. كنت قد دخلت المطبخ، وجلست لصق الكانون الطيني، على صخرة صغيرة. ولما أتت النار على الحطب، أحدثت طقطقات متتالية، وانطلقت منها شرارات سقط بعضها على ملابسي، أحرقت بعض أماكنها، فأحدثت فيها ثقوبا صغيرة.

كانت جدتي تقضي النهار بطوله وهي جالسة في هذا المطبخ الذي بنته لنفسها خلف الدار. تعجن الخبز وتنضجه على طاجين

طيني. ولما تنتهي، تمكث فيه في عزلة تامة. رائحة الدخان كانت تلتصق بملابسها. ولا أزال إلى اليوم أتذكرها كلما شممت رائحة الدخان الذي يتصاعد من نار الحطب.

جدتي كانت تفضل العزلة. لم أرها تضحك يوما. كانت قليلة الكلام. ساهية طول الوقت. غارقة في تخمينات تأخذها بعيدا. سمعتها ذات يوم تقول لجدي إنها ترغب في العودة إلى دشرة آث منديل التي هجرتها خلال حرب السنوات السبع. أبدى جدي اعتراضا لرغبتها، فأذعنت المسكينة وبقيت في المدينة مجبرة. فهمت لاحقا أنها عاشت بعيدا عن آث منديل مرغمة، وفي داخلها حرقة العودة إلى حياتها الأولى، إلا أن جدي كان رجلا صارما قاسيا، لا يستجيب لطلباتها. أعتقد أن جدتي عاشت حياتها حزينة. لم يسبق لي وأن رأيتها تضحك. عاشت مثخنة بالجراح التي سببتها لها مغادرة آث منديل، تلك النقطة الصغيرة الواقعة بين أزفون وبجاية على ظهر جبال الصومام جهة الشمال، حيث لا يوجد سوى تلك المنارة العالية التي تضيء للسفن مسارها، وهي متجهة إلى ميناء بجاية أو عائدة منه. ويحكى أن فراشة مزركشة كانت تحوم حولها بينما كانت تحتضر عند غروب الشمس. العجائز اللواتي جئن لتوديعها أقسمن أنها فراشة قادمة من آث منديل بجبال الصومام. ابتسمت جدتي بمجرد أن فتحت عينيها وأبصرتها، فاحمر وجهها، ثم لفظت آخر أنفاسها. وقيل إن الفراشة حطت على جبهتها للحظات، قبل أن تغادر الغرفة.

بدأت مأساة جدتي مع حرب السنوات السبع الرهيبة، القاسية، الباقية عالقة في ذاكرتها، راسخة لا تنمحي، فقد أجبرت عائلة أمي على مغادرة آث منديل بعد أن شرع الطيران

الفرنسي في تهديم القرى عقب عودة ذلك الجنرال الطويل ذي الأنف الكبير (المدعو لاسبيرج) إلى الحكم في باريس، عازما في البدء على سحق هذه الثورة التي ينعتها بالحرب، قبل أن يدرك لاحقا أن الأمر انتهى وما عليه إلا الامتثال للأمر الواقع.

كانت جدتي تسرد علي تفاصيل مأساتها كلما سنحت لها فرصة ذلك؛ إذ لم تكن تعرف قصصا أخرى غير قصص الحرب. في كل مرة عند مطلع السنة، بينما يشتد البرد، كانت تسرد على مسامعي قصة القايد سيبوس.

قصة سيبوس كما روتها جدتي، جرت خلال شتاء عام 1957، وقد رسخت تفاصيلها في ذاكرتي مع مرور السنوات لكثرة ما سمعتها. كانت تبدأ عند الفجر، بينما الثلج يتساقط على أكواخ آث منديل لليوم الرابع دون توقف، وقد زحف عساكر القايد على القرية وهم مدججون بالأسلحة. شرعوا في إخراج أهلها من منازلهم رغم البرد. سيبوس كان يمتطي حصانه الأشهب، يرتدي برنوسا أسود، يمسك بيده اليمنى بندقية أمريكية، ويتابع أهل القرية بنظراته القاسية المنبعثة من عينيه الصغيرتين، وبين الفينة والأخرى كان يتابع رجاله وهم يهينون ويسيئون معاملة أهل القرية بعد أن انتزعوهم من النوم. وقف الجميع يرتعد من شدة البرد، وسط الظلمة. تجرأ فجأة أحد شيوخ القرية على معاتبة سيبوس على فعلته، فلطمه أحد العساكر في وجهه بضربة من يده اليمنى، أسقطه أرضا، فلم يتمكن حتى من النهوض. حاول اثنان من رجال القرية حمله على النهوض، وكان الدم يسيل من أنفه وفمه، فصاح سيبوس قائلا :

ـــ متى مر هؤلاء الخنازير من هنا.

هدد أهل القرية، وأمرهم بأن يكفوا عن مساعدة المحاربين. ولما غادر المكان كادت جدتي أن تتجمد من البرد حسب ما روته لي عشرين سنة بعد هذه الحادثة. واسترسلت جدتي في الحكي وأخبرتني أن المحاربين مروا من القرية في الليلة الموالية، وكان البرد على أشده. سقوط الثلج لم يتوقف، والسماء حالكة السواد كما كانت. أقام المحاربون حراسة على مداخل القرية الأربعة، فاجتمعوا برجالها، طلبوا منهم الاستمرار في مساعدتهم، ولما أبدى الرجال شيئًا من التردد، هددهم قائد المحاربين، فراح يذكرهم بما جرى خلال تلك الليلة الحمراء حيث أقدموا على اغتيال أهل قرية أميزور على بكرة أبيهم، بعد أن كشفوا تواطؤهم مع القايد سيبوس. هددونا بنفس المصير، قالت جدتي وهي تستعيد هذه الواقعة، فلم نعثر سوى على حل واحد للنجاة بأنفسنا، وهو مغادرة القرية، تركها والتوجه بعيدا، حيث لا يوجد المحاربون ولا القايد سيبوس، فتركنا آث منديل وجئنا إلى أزفون، مكثنا فيها بضعة أيام، ثم سرعان ما غادرنا المنطقة بأكملها، وجئنا إلى هنا. تركنا منازلنا، وأراضينا.

كانت جدتي تبكي، وتمسح دموعها بمنديل قطني أحمر لا يبرح يديها، فالأرض كانت تشكل جزءا من وجدانها، هي التي كانت تربطها بالحياة. لما انتهت الحرب، ظنت أنها ستعود حتما إلى آث منديل، وتطلب من زوجها أن يعيد بناء منزلها، لكن ذلك ظل مجرد أمنية، فقد تعرضت أرضنا للتأميم، وأخذتها الدولة. وبعد سنوات عديدة علمت أن الأرض لم يمسها التأميم أبدا، إذ لم يكن جدي يملك سوى ثلاث هكتارات، تقع في

منطقة جبلية وعرة تطل على منارة سيغلي حيث خليج البحر يمتد بزرقته اللازوردية.

قرار التأميم لم يمس أرضنا، سمعت جدتي تقول أكثر من مرة، لكن الذي حدث هو أن حاكم البلدة الذي كان يكنُّ الضغينة لجدي منذ سنوات الحرب، قرر تأميمها نكاية به. أخبرني جدي بتفاصيل هذه القضية قبل وفاته ببضع سنوات، وقال لي أن الرجل كان حركيا، تسبب في مقتل الكثير من المحاربين أو الذين قدموا لهم العون، ولما بلغه أن الكولون خسروا الحرب، وأنهم سيغادرون البلاد كما جاءوا إليها لا يحملون معهم سوى حقائبهم، بدأ يبحث عن المخرج الذي يضمن له البقاء على قيد الحياة، فقرر مغادرة آث منديل إلى العاصمة. وصلها مع الحرب الأهلية. كان يجلس في مقهى الثورة متظاهرا بالندم ووخز الضمير من جراء ما قام به خلال الحرب، فوصل به الأمر إلى البكاء أحيانا على فعلته على مرأى ومسمع من رواد المقهى. ظل الرجل كذلك إلى أن دقت ساعة الحظ التي غيرت مجرى حياته. لما دخل جنود غارديماو العاصمة منتصرين، بحثوا عن الرجال الذين يساعدونهم في زحفهم على بلاد القبائل التي ظلت معادية لهم، والقبض على أبنائها المحاربين على أن يستولي على السلطة جنود مرتزقة قضوا سنوات الحرب السبعة بعيدا عن الثورة. اتصل به رجال غارديماو، رغم علمهم بماضيه الملوث، اقترحوا عليه منصب حاكم عام للمنطقة كلها. أدرك أن ساعة الانتقام دقت مجددا، فلم يتردد في قبول الوظيفة، فدخل البلدة مع المنتصرين في الحرب الأهلية.

أهل آث منديل لما وصلهم ما جرى، عادوا إلى صفوف المعارضة، وقرروا إشعال فتيل حرب أهلية أخرى، قادها ذلك الزعيم الذي قضى سنوات الحرب في السجن، منذ أن ألقيت

عليه السلطات الاستعمارية القبض. كانوا يحاربون إلى جانب صفوف الحزب الاشتراكي المعارض، لوضع حد للانحرافات التي انتشرت في البلاد بعد رحيل الكولون. لم تدم الحرب طويلا، إذ سرعان ما أخمدت بعد أن نشبت حرب الرمال ضد قوات الملك الذي أراد التوسع شرقا، مستغلا فرصة الاقتتال الداخلي بين الإخوة الأعداء، وقد ظن أن الجبهة الداخلية تشتت نهائيا، فأرسل جنوده إلى الشرق للاستيلاء على ما أمكن من الأراضي.

أخبار الحرب لما وصلت مسامع المحاربين في الحزب الاشتراكي، جعلتهم يضعون الضغينة جانبا، فعقدوا الهدنة مع قوات جيش غارديماو ووجدة، وانخرطوا في الحرب ضد قوات الملك، ولما عادوا إلى البلدة، وجدوا أن الحاكم ثبت نفوذه، وأصبح سيد المنطقة بكاملها. لقد انفلتت الأمور من أيديهم بشكل نهائي، ومع مرور السنين أصبح الرجل يدفع مبالغ مالية ضخمة لشيوخ البلدة الغارقين في بؤسهم مقابل أن يشهدوا أنه لم ينتم يوما إلى فرق الحركى، بل كان محاربا في الجبال. الشخص الوحيد الذي وقف له بالمرصاد، وحاول فضحه وكشف الحقيقة، كان جدي. علمت منه أنه عاد ذات يوم إلى آث منديل، فعلم بما جرى. اجتمع بالشيوخ في مجلس البلدة، فأبدى استياءه من صمتهم وخضوعهم الأعمى للرجل. لم يجدوا ما يقولونه لجدي، غرقوا في صمتهم، و طأطؤوا رؤوسهم، إلى أن كسر أحدهم الصمت المخيم، وقال :

ـــ أصبح هذا الرجل يمسك بزمام كل شيء، الجميع معه، رجال الحزب والجيش، أصبح قويا، وكل من تجرأ على الكلام أرسله إلى السجن، إنه يتصرف هنا كأنه القايد سيبوس.

نهض جدي من مكانه، وقال :

ـــ لن أتركه ينسى من يكون.

عاد جدي إلى العاصمة خائبا. وكان اجتماعه بشيوخ البلدة في المكان المسمى تجماعث، قد بلغ مسامع الحاكم الذي وضع جدي صوب عينيه، وراح يتحين الفرصة لإيذائه، وقد أقسم على ذلك، وأخبر أعوانه قائلا :

ـــ سأدخله النسيان.

كانت الحرب بين الرجلين قد بدأت، وكلما وطأت أقدام جدي آث منديل، إلا وأرسل له الحاكم من يراقبه من رجاله، وكانت التقارير تصل تباعا إلى مكتبه. وبعد سنة من هذه الحادثة انخرط جدي في الحزب الاشتراكي الذي دخل السرية، فراح يتحين الفرصة بدوره لإسقاط نظام الكولونيلـــ الذي انقلب على السيد الرئيســـ وكشف حقيقة ذلك الحركي الذي أصبح يتحكم في مصائر الناس، ولما بلغه أمر تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي، أدرك أنه عثر على الطريقة التي يجعل بها جدي يكف عن زيارة آث منديل، فقال لأحد مقربيه : "سأجرده من هذه الأرض التي يقف فوقها مزهوا متعاليا".

تعرضت أرضنا للتأميم خلال شتاء ذلك العام، انتزعت من جدي عنوة، ولم يستطع فعل أي شيء لاسترجاعها، فقدها كما يفقد الإنسان شيئا ثمينا. كان يجلس وسط الدار خلال مساءات الشتاء الباردة مهزوما، وحيدا يفكر في ما آلت إليه وضعيته، يرفض الحديث لأي كان، كأنه أضرب عن كل شيء، وجهه كان يبدو تعيسا، عيناه غائرتان، يدخن كثيرا، وهو يتكئ على عصاه الخيزرانية. لقد مات بسبب الحسرة، قالت جدتي، مات لأن إحساسا بالنهاية ساوره وأفقده الرغبة في

الاستمرار في العيش. الموت كان يشتهيه، فكان له ذلك بعد سنتين. مات جدي وهو جالس في البلكون، بينما السماء تمطر دون توقف، كنت جالسا بالقرب منه، أتأمله وهو غارق في صمته، وفجأة طأطأ رأسه، فظننت أن النوم أخذه، وإذا به مات، مات جدي أمامي، ولم أكن أعلم. نهضت من مكاني، وخرجت إلى الشارع. لعبت إلى غاية غروب الشمس، ولما رجعت إلى البيت أخبرتني أمي قائلة "جدك مات". وبعد ساعة امتلأ منزلنا بنساء يرتدين لباسا أسود، جاء كل الجيران لتقديم التعازي لجدتي، وبقي الرجال في الخارج، عرضوا المساعدة على والدي، وقد رأيته يبكي أمامي لأول مرة في حياتي. في اليوم الموالي وضعوا جدي في قطعة قماش أبيض، وأخذوني لرؤيته وهو ميت، كان يبدو هزيلا، عيناه غائرتان، ووجهه شاحب. وفي المساء أخذوه في شاحنة إلى المقبرة، وبقيت أنا وحيدا في البيت رفقة النساء، أتابع جدتي وهي تبكي، ولا تزال تبكي وهي تستحضر ظروف وفاة زوجها.

ظلت تمطر مطرا متواصلا. منذ ثلاثة أيام، والمطر ينزل من السماء غزيرا لا ينقطع. الوديان النابعة من أعالي الجبل المقابل لحي سان كلو كانت تسيل سيلا جارفا، حاملة معها أتربة حمراء، وجذوع الأشجار، وكل ما وجدته في طريقها الممتد إلى غاية تدفقها في البحر.لا شيء تركته في مكانه، ولم تجره معها لتقذف به حيثما تشاء.

كنت أرتجف من شدة البرد، إلى درجة أنني كنت أستمع لأسناني وهي تصطك. كنت أتألم. ملابسي لم تمنحني الدفء الكافي. كنت أرتدي سروالا خفيفا من الناموس، وسترة من القطن، عليها معطفا لم يعد على مقاسي. كان قصيرا إلى

درجة أن كميه لم يكونا يصلان إلى غاية معصم اليدين. وكان خاليا من الأقفال، فاستحال علي إقفاله بإحكام، حتى لا يتسلل البرد إلى جسدي النحيف الذي أخذ يرتعد. وأحسست أن وجهي كان باردا، وأنفي كان يسيل، ينزل منه مخاط أبيض، أزيله أحيانا بمنديل أبيض وضعته في جيب معطفي.

قلت لجدتي أنني جائع، فقالت :

ـــ ثورا أكدفكغ أشو أرشظ (سأعد لك ما تأكله).

كنت أتضور جوعا. أحشائي كانت تؤلمني، فانحنيت قليلا على بطني، وأنا أتأمل جدتي.

أخذت حبات بطاطا، وضعتها في النار المشتعلة بين الجمر المتأجج، ورحت أنا أنتظر.وشيئا فشيئا أحسست أن الحرارة بدأت تدب في ثنايا جسدي. أخذت جدتي عود حطب كان أمامها، فراحت تقلب حبات البطاطا. تركتها فوق الجمر، ثم تمسكها بيدها رغم سخونتها، وراحت تقلبها بين يديها حتى تبرد قليلا، ثم نزعت عنها قشرتها، فأعطتني إياها. التهمتها رغم سخونتها من فرط الجوع الذي كان ينهش معدتي.

لما انتهيت من الأكل، توقفت أوجاع معدتي، وكانت الحرارة تسري في جسدي. أحسست أنها كانت تصعد إلى رأسي، فساورني إحساس بالطمأنينة. جدتي التي كانت تحرك النار بعود الحطب، قالت لي بالبربرية التي لا تعرف غيرها :

ـــ يوغلد باباك ؟ (هل عاد والدك؟)

كنت أعلم أن والدي لم يغادر البيت. لذلك هربت عندها، فأجبتها قائلا :

ـــ مازاليث غوخام (إنه ما يزال في البيت.)

ـــ الموجة ثجث غوخام (أمواج البحر منعته من الإبحار) (تركته الموجة في البيت).

ـــ نعم.

ـــ أحملغ أرى أثزرغ أسمى أريقيم غوخام، يتيوعير (لا أريد رؤيته حين لا يبحر، يصبح عنيفا).

ـــ بابا دايمن يوعر، يفغ البحر نغ يقيم غوخام (بابا دائما عنيف سواء أبحر أو لا).

لما أنهيت كلامي سمعت وقع أقدامه. كان قادما نحونا. أخذت أرتجف. حتما سيضربني.

ـــ ماذا تفعل هنا يا حمار ؟ قال لي.

طأطأت رأسي وبقيت جاثما في مكاني. جدتي أجابته قائلة:

ـــ يوثيث أوبحري، موقل أنزرنيس أتزلن (إنه مصاب بالزكام، ألا ترى أنفه يسيل).

ـــ طبعا يصاب بالمرض لأنه يظل في الخارج.

اقترب مني. مسكني من قفاي، و قال صائحا :

ـــ كم من مرة حذرتك بأن تبقى في البيت ؟

آلمتني قبضته، فرحت أبكي. أشفقت علي جدتي، فقالت مخاطبة ابنها :

ـــ طيخرس ثورا، أنيغك يهلك (أتركه الآن، قلت لك إنه مريض).

لم يكترث والدي لكلام أمه، أنهضني من مكاني، وضربني على مؤخرتي، قائلا :

ـــ هيا أدخل إلى البيت.

هرعت إلى أمي باكيا. مؤخرتي كانت تؤلمني، والمخاط يسيل من أنفي. قطعت الحديقة مسرعا، وفتحت باب بيتنا بقوة الطفل الذي كنته آنذاك. أمي التي كانت في المطبخ، سمعتها تقول :

ـــ شكون ضر بك ؟

أجبتها قائلا :

ـــ بابا.

ـــ ماذا فعلت حتى يضربك ؟

ـــ وجدني عند جدتي.

ـــ تستأهل، ألم أطلب منك أن تبقى في البيت طالما والدك هنا، لم يبحر بسبب العاصفة.

توقفت عن البكاء، وغادرت المطبخ. في الصالون حاولت أختي التي تصغرني بسنتين أن تشاكسني، فضربتها بقدمي. نزلت الضربة على ساقها، فآلمتها. سقطت على الأرض، فبكت. سمعها والدي الذي كان في الحديقة، فجاء لمعرفة ما جرى. قال لها من ضربك، فقالت له :

ـــ زينو.

مسكني من شعري، فدفعني إلى الحائط. اصطدمت رأسي بالحائط، فسقطت أرضا مغمى علي.

لما أفقت من غيبوبتي، وجدته جالسا أمامي على سرير غرفتي. كان يمسد شعري، ووجهي النحيف بيده التي تعبق برائحة البحر فقال لي :

ـــ لماذا تجبرني دائما على ضربك يازينو ؟

الطفل الصغير الذي كنته آنذاك، لم يكن بإمكانه التعبير عن رغبته في أن يحيطه والده بالرعاية.

دخلت أمي الغرفة، وفي يدها كأس حليب ساخن، غادر والدي الغرفة، فنهضت من على سريري. وقفت ورحت أطل إلى الخارج عبر زجاج النافذة. كانت الرياح تأخذ الأشجار يمنة ويسرة، كأنها تريد أن تقتلعها من جذورها.

.2

توقفت الأمطار عند المساء، وهدأت العاصفة. غادر والدي البيت، ففرحت لذلك. انتظرت قليلا، ثم قلت لأمي :

ـــ أقلين ذي برا (أنا في الشارع).

قالت صائحة :

ـــ سيقتلك لو وجدك تلعب في الشارع.

كانت تقصد والدي. لم أكترث لكلامها. أمي ليست قاسية معي مثل والدي. دائما تقول إنها تخبر والدي، لكنها لم تفعل ذلك يوما. تخاف علي من غضبه، ومن ضرباته التي يوجهها إلى جسدي كيفما اتفق.

في الخارج لطمتني رياح البحر الباردة. تمنيت لو كنت أملك معطفا دافئا يقيني من البرد. طلبت من والدي ذات مرة أن يشتري لي معطفا ذو قبعة، فحدجني بنظرة قاسية. ومنذ ذلك اليوم لم أطلب منه أن يشتري لي شيئا.

مشيت إلى جهة طرق السيارات، فالتقيت عميروش الذي كان يحمل معه كرة صنعها من القش، وأحاطها بسلك رقيق.

قال لي :

ـــ هل تريد لعب كرة القدم معنا.

خفت أن يجدني والدي في الملعب، لكنني تجرأت وقلت :

ـــ نعم.

في الستاد الأحمر خلف الحي، وجدنا باقي الأطفال في انتظارنا. قسمنا أنفسنا إلى فريقين، وانطلقنا في اللعب. كنا نجري وراء كرة القش. في البداية كنت ألعب وألتفت ورائي. خفت أن يعثر علي والدي وأنا ألعب الكرة. لو وجدني هنا، فإنه حتما يضربني. لكنني سرعان ما نسيته ، وانخرطت كليا في اللعب. ساورني إحساس بالخفة وأنا أجري وراء الكرة، مبديا سعادة طفولية، راحت تتعاظم كلما يسجل رفاقي هدفا في مرمى الفريق الخصم. وكانت أمطار رقيقة قد شرعت في التساقط مجددا. بللت أجسادنا، ولم نتوقف عن اللعب. كان الماء يسيل على وجوهنا باردا، ولم نكترث لذلك. وفجأة شاهدنا جماعة من شبان الحي قادمين نحو الملعب، أحدهم كان يحمل في يديه كرة حقيقية. لما وصلوا إلينا، طلبوا منا أن نغادر الملعب فورا. طلبنا منهم أن ينتظروا حتى تنتهي مقابلتنا، لكنهم سخروا منا. تجرأت قليلا واقتربت من أحدهم، وقلت :

ـــ وصلنا إلى هنا قبلكم، ونحن أولى باللعب.

ضحكوا جميعا ، فتقدم نحوي بوجمعة الأسود بوجهه القبيح، وكان أكثرهم خشونة، وقال :

ـــ أترك المكان واذهب عند أمك... هيا غادر المكان بسرعة.

أذعننا للأمر، وغادرنا الملعب، خائبين. مشينا تحت الأمطار الرقيقة إلى وسط الحي، فاتفقنا على اللعب على طول الطريق. وما أن وضعنا الكرة على الأرض حتى سمعنا السيد بوفارة يصيح فينا من شرفة فيلته قائلا :

ـــ ألم أحذركم من اللعب هنا يا أوغاد ؟ هيا ابتعدوا من هنا... بُوند دُو فوايُو.

كان يكلمنا بلغة فرنسية لم نكن نفهم منها سوى بعض الكلمات. إلا أن ملامحه القاسية وصياحه كانا كافيين لندرك مدى غضبه واحتقاره لنا، إذ كان في بعض الأحيان، وهو يقف في شرفة مرتديا ملابس النوم، يصيح قائلا :

ـــ بعدوا منا يا عرب، يا حشرات.

أهل الحي جميعا يهابونه. كان رجلا ذا ملامح قاسية، قصير القامة إلى حد مضحك، أنفه كبير، عيناه سوداوان، وكان الشعر قد طار من رأسه. لم يسبق له وأن تحدث مع أحد من سكان الحي. في الصباح الباكر على الساعة الثامنة يأتيه سائقه على متن سيارة حكومية من نوع دياس بلاس، سوداء اللون. ينتظر السائق قليلا وإذا به يخرج حاملا محفظة جلدية كبيرة، مرتديا بدلة أنيقة، وواضعا ربطة عنق. ينزل السائق ليفتح له الباب الخلفي، فيصعد هو مزهوا في حركاته. يقفل السائق الباب، ويعود إلى مكانه، فينطلق بها بسرعة، تاركا أهل الحي ممن كانوا ينتظرون الحافلة للذهاب إلى عملهم غارقين في ذهولهم، يسألون من يكون هذا الرجل الذي لا يدلي بالسلام، والذي يذكرهم بالمعمرين الإسبان الذين كانوا يسكنون الحي ؟

أما زوجته فامرأة غريبة. اسمها أسمهان. قامتها طويلة، تختلف عن زوجها، وعن نساء الحي. لا تذهب عند أي أحد. في

الصباح حينما تغادر الحي إلى المدينة، كانت تسير متبخترة، مرفوعة الرأس، أنفها إلى الأمام، ووجهها مكشر كأنها تريد ترهيب أهل الحي. بشرتها بيضاء مثل شعرها المقصوص مثل الرجال. لون عينيها أزرق، وجسدها ممتلئ مثل زوجها. كانت تطل علينا من النافذة وتصيح فينا بالفرنسية بأن نبتعد عن الفيلا. كانت تظهر بلباس مثير، تكاد تكون عارية، وقد برز ثدياها. كانت تشجعنا على الشيطنة كلما أطلت من الشرفة، وكنا نتمتع برؤية جسدها العاري المكتنز، وكانت هي تنعتنا مثل زوجها بالعرب المتخلفين وبأبناء العاهرات. لم تكن تستحي. تقولها بصوت مرتفع، وتمضي إلى الداخل. الكبار كانوا يرددون عنها كلاما غريبا تشوبه حكايات عجيبة تشدنا رغم صغر السن. قالوا إنها كانت تعمل خادمة في بيوت الكولون الإسبان، وقالوا عنها كلاما مثيرا كنا نتلذذ بسماعه من أطفال يكبروننا سنا، وأكثر منا شطارة. قالوا إنها اشتغلت في بيت للدعارة، وتدخن السجائر، وإنها تعشق رجلا غير زوجها، لأن زوجها ليس فحلا، لا يُشبعها في السرير أثناء الليل.

وبعد سنوات من استقراره في حي سان كلو، راج بين الناس أن الغريب يدعى مسعود بوفارة. دخل حي سان كلو لأول مرة عقب الانقلاب العسكري. وقيل إنه من أتباع الكولونيل الذي قاد الانقلاب في عز الصيف ثلاث سنوات بعد رحيل الغزاة. الشيوخ الذين تداولوا القصة وجعلوها تنتشر بين الناس من مقهى الثورة حيث يجلسون، قالوا إن الكولونيل لما اتخذ قراره كان السيد بوفارة يجلس خلفه. وقالوا إنهما دخلا البلاد سويا قادمين من تونس. جاءا على رأس جيش الحدود المدجج

بالأسلحة، يحلمون بالسلطة. ولما وصلوا إلى مشارف العاصمة نصب الكولونيل خيمته. نام فيها وحيدا إلى غاية الفجر. ولما أفاق من نومه، استدعى مساعديه ، فأخبرهم بقراره، قائلا :

ـــ سنحارب اليوم.

من أجل ماذا ؟ تجرأ أحد مساعديه على مساءلته.

ـــ من أجل السلطة. أجاب الكولونيل.

أعطى الكولونيل أوامر صارمة لمساعديه بأن يقاتلوا كأنهم يحاربون الغزاة، فبدأت المعركة مع إطلالة الشمس. هاجمت قوات الكولونيل محاربين نزلوا من الجبل ليحتفلوا بانتصارهم على الغزاة. قضوا في الجبال سبع سنوات كاملة، يعيشون في المغارات، يقاتلون ببنادق الصيد، ويحلمون باليوم الذي يعودون فيه إلى عائلاتهم التي تركوها. الحلم لم يتحقق، هاهم مجبرون على مقاتلة عدو آخر، قضى سنوات الحرب السبعة في غارديما و ينعم بالهدوء، قاتلوا ببسالة، لكنهم كانوا يسقطون قتلى الواحد تلو الآخر، والكولونيل سعيد في خيمته وهو يتلقى أخبار سير المعركة، بينما كانت قواته تسير إلى الأمام، ولم يبق بينها وبين قصر الحكومة سوى بضعة كيلومترات، انبسطت أساريره ، وأسر لبعض مقربيه قائلا :

ـــ سنجلس على كراسي الغزاة بعد يومين.

وصف الصحفيون الأجانب الذين جاءوا لنقل أفراح المحاربين وهم يعودون إلى أهاليهم، في تقاريرهم أطوار معركة ضارية، بعضهم أرسل تقارير مأساوية، وكتبوا أن تبادل الطلقات النارية بدأ مع شروق الشمس، واستمر طويلا. ظهر التعب على المحاربين منذ بدء المعركة. أما قوات جيش الحدود فكانت تحارب

بشراسة تشبه شراسة جيش غاز. لم يكن المحاربون مستعدين لمعارك أخرى، في حين قضت قوات الكولونيل سنوات الحرب الطويلة في تعلم تقنيات الحرب الانقلابية للاستيلاء على السلطة. كانت تكن حقدا واضحا للمحاربين. وجاء في ذات التقارير الصحفية أن شيئا غير مفهوم يجري في هذه البلاد. السلطة تبدو كأنها هي الهدف الأسمى، قوات الكولونيل لا تملك أية شهامة، يبدو أنها تلقت أوامر صارمة للقتال. وقد ورد في ذات التقارير الصحفية أنه عند منتصف النهار قال شهود عيان أن محاربا تعرض لجروح لم يتمكن من الانسحاب رفقة رفاقه بقي خلف صخرة، استسلم لأمره. عثر عليه جندي طويل القامة، وجه نحوه رشاشه، أغمض المحارب عينه، لقد أدرك مصيره لما رأى الحقد البارز من عيني الجندي، كان أكثر شدة من حقد جنود الغزاة. أغمض عينيه إذا، فأطلق عليه الجندي رصاصه. مات المحارب. أجهز عليه الجندي. إنها بداية عداوة طويلة بين محاربين قاتلوا الغزاة، وجنود مرتزقة دخلوا البلاد للاستيلاء على السلطة.

هذه العداوة كانت تميز سلوك مسعود بوفارة (القادم من غارديماو) تجاه أهل حي سان كلو. كان يعاملنا كأننا من طينة حقيرة، فلم يسلم أحد من ضغينته وحقده الذي لا يتوانى عن إظهاره نحونا كلما اقتربنا من منزله ولعبنا الكرة. كان يطردنا بمجرد أن تطأ أقدامنا المكان، ومع مرور الزمن أصبحنا نبادله نفس الإحساس، أصبحنا نكرهه، ونبصق على الأرض كلما مر أمامنا بسيارته الحكومية السوداء.

ولما أطيح بالسيد الرئيس، انتقل الكولونيل من وزارة الدفاع إلى قصر الرئاسة، فوجد صعوبة في نزع بذلته الكاكي.

في تلك الليلة أرسل رجاله إلى بيت الرئيس في قلب العاصمة. كانت رياح الغربي الباردة تهب عليها، فأضفت على الجو انتعاشا ساعد السيد الرئيس في الخوض في تأملاته. كان يجلس على أريكة جلدية، قرب ضوء الفيوزة الخافت، وكانت النافذة مفتوحة على مصراعيها، تتسرب منها نسمات البحر الباردة، والسماء كانت صافية تسبح فيها النجوم. الشارع كان خاليا من المارة، فقد تعود الناس على دخول بيوتهم باكرا. تعودوا على ذلك منذ معركة الشتاء التي جرت خلال ذلك العام المأساوي خمس سنوات قبل رحيل الكولون.

سمع السيد الرئيس وقع طرقات عنيفة ومتسارعة على الباب، أخذته من تأملاته. نهض من على أريكته، فتوجه نحو الباب، وقد حل به الفزع، ولدغه إحساس بأن شيئا سيئا سيقع. وبينما وقف أمام الباب، قال من ؟ أجابه صوت خشن قائلا "جئنا لكي نأخذك معنا"، تعرف السيد الرئيس على الرجل، عسكري برتبة عقيد، يعرفه جيدا، وقف إلى جانبه خلال الحرب الأهلية، كل هؤلاء العقداء الذين قرروا الانقلاب عليه يعرفهم السيد الرئيس، هو الذي حملهم إلى السلطة، استعمل بنادقهم للتخلص من خصومه، وهاهم ينقلبون عليه، وضع ثقته في عقداء كانوا يتحينون الفرص للاستيلاء على السلطة، وهاهو يفتح الباب، يدخل العقيد، يتبعه ثلاثة من رجاله، العقيد القصير القامة، الأفطس الأنف، ذو الوجه الخسيس، له عينان حادتان قبيحتان، يداه غليظتان نما عليهما شعر أسود، وقف على عتبة الباب، لم يدخل، قال للسيد الرئيس : "ارتد ثيابك، واتّبعنا"، لماذا ؟ سأل السيد الرئيس، فأجابه العقيد :"شكلنا مجلسا ثوريا، و قررنا تنحيتك"، فهم الرئيس أن انقلابا

عسكريا أطاح به، ارتدى بذلته الشنغهاي، سار مع العقيد، يتبعهما الرجال الثلاثة، أياديهم على مسدساتهم، نزلوا سلالم العمارة في صمت، الرئيس لم يقل شيئا، والعقيد لازم الصمت، صعدوا في سيارة سوداء، انطلق السائق، بسرعة، اختفت السيارة، كان الرئيس يجلس بين الرجلين، العقيد ركب في الأمام، ظل الصمت مخيما، وفجأة قال الرئيس : "ماذا ستفعلون بي ؟" "لست أدري" أجاب العقيد، السيارة غادرت المدينة، انطلق السائق على طريق الساحل، راح الرئيس يتأمل البحر الهادئ، وانعكاس ضوء المصابيح العمومية على السطح، مرت السيارة على أحياء الضواحي، منها حي سان كلو، وكان الناس منشغلين بهمومهم، وصلت السيارة مدينة ساحلية، وصلتها بعد ساعتين من السير، الساعة سبقت منتصف الليل، غادرت السيارة الطريق الرئيسي، انحرفت إلى طريق ثانوي، أشجار الصنوبر تحاذي الطريق، توقفت عند مدخل فيلا تحيطها أشجار وارفة، وكان الجنود يحيطون بها، يحرسونها بأسلحتهم الموضوعة على أكتافهم، طلب العقيد من الرئيس أن ينزل، أذعن الرئيس، نزل، وتبعه العقيد، بدا الرئيس محطما، نسمات الليل الباردة داعبت وجهه النحيف، فتح العقيد باب الفيلا، دخل الرئيس، ثم العقيد، وتبعهما الرجلان، الكل دخل في صمت، وضع العقيد يده على زر أمامه، عم الهدوء أرجاء الصالون، كان الصالون واسعا، أرضيته الخشبية مفروشة بزرابي طويلة، جدرانه مزينة بلوحات زيتية، بعضها لماتيس، وبعضها الآخر لدولاكروا، مكتب صغير كان موضوعا في الركن الأيمن، عليه فيوزة صغيرة حمراء اللون، وعلى الجدار المقابل علقت لوحة لبيكاسو، غورنيكا، تصوير معركة. جلس الرئيس على الأريكة، فقال للعقيد :

ـــ والآن ماذا تنوون أن تفعلوا بي.

أجاب العقيد دون تردد :

ـــ لاشيء.

ـــ كيف ذلك ؟

ـــ ستبقى هنا وحيدا.

ـــ من قرر هذا ؟

ـــ نحن

ـــ من أنتم ؟

ـــ مجلس الثورة.

أبدى الرئيس ضحكة استهزاء، فرمقه العقيد معاتبا، ثم قال :

ـــ أنا ذاهب الآن، وأنت ستبقى هنا.

جلس الرئيس على الأريكة أمامه، فقال :

ـــ وهل ستطول المدة ؟

ـــ لست أدري، الكولونيل هو من يقرر.

أصبح الكولونيل سيد البلاد، ذلك العسكري الذي رافقه من غارديماو، والذي تحالف معه لخوض غمار الحرب الأهلية ضد المحاربين الموالين للقوات الحكومية، أصبح يتحكم في مصيره، زج به في هذا السجن الفسيح، ربما سيقتله، لا يدري، كما لا يدري كم من الوقت سوف يقضي هنا.

كان العقيد قد غادر الفيلا بينما الرئيس غارق في تأملاته، بقي وحيدا، نهض من مجلسه، توجه إلى النافذة المطلة على الخارج شديد الحراسة، فتحها، فوجد العساكر في مكانهم،

واقفين بأسلحتهم، بعضهم يدخن السجائر، وآخرون يتبادلون أطراف الحديث، أدرك نية الكولونيل، سيتركه هنا بعيدا عن الناس، سيتقي شره بوضعه تحت الإقامة الجبرية، قال في قرارة نفسه إن السلطة التهمت نفسها، السلطة التي شكلها رفقة الكولونيل وجماعة غارديماو سجنته، فحز في نفسه ما آل إليه حاله، تلك الحال التي لم يكن ينتظرها يوما، لكن ماذا تفعله سلطة اعتلت سدة الحكم بالقوة، ألم يكن هو أحد الأطراف الذين شجعوا مثل هذه الممارسات، حينما شكل مكتبا سياسيا في مسقط رأسه، فاختار الرجال الذين يثق فيهم ؟ وقام بتهميش كثيرا من المحاربين، شارك في الحرب الأهلية.

كان على علم أن المحاربين كانوا يموتون على بكرة أبيهم، كان عنيفا تجاه رئيس الحكومة المؤقتة، قال له في اجتماع رسمي في طرابلس : "سأنزع لك سروالك"، وقبل هذا بأربع سنوات وهو قابع في سجن أولنوي وصله خبر اغتيال ذلك السياسي المحنك الذي انغمس في الحرب من الداخل ورفض مغادرة البلاد للعيش في الفنادق الفخمة قرب غارديماو أو سويسرا، كتب في سجنه إذاً رسالة إلى الكولونيل الذي أعطى الأوامر لرجاله للقيام باغتيال ذلك السياسي، وجاء في رسالته أنه يبارك مثل هذه التصفيات الجسدية، فكتب ما يلي :"ليس بوسعنا إلا أن نشجعكم على اختياركم طريق التطهير. إنه من واجبنا جميعا، إذا كنا نرغب في تخليص الثورة، أن لا نلين ونحن نمارس هذه التصفيات الجسدية". وهاهو الآن بعد مرور تسع سنوات عن واقعة الاغتيال الذي باركه، يقع ضحية عنف عقيد أخر، تحالف مع العسكر من أجل السلطة، فالذي يبارك السيف، يقع بواسطة السيف. هذا هو مصير السيد الرئيس، إنه

الآن وحيد، في فيلا تقع قبالة البحر، يحرسها الجنود بيقظة لا مثيل لها. أراد أن يحكم وحيدا، وانفرد بالسلطة. بارك منطق العنف، فالتهمه العنف، شجع القتل البشع، بارك الموت خنقا، اغتبط لاغتيال ذلك السياسي الذي عاش حياته كلها من أجل أن يرى أبناء جلدته يحيون واقفين.

.3

بعد الانقلاب، جرت أمور أحزنت أهل الحي. غرقوا في المأساة، وبدأت الشكوك تراودهم بشأن الغد. السيدة ماري فرانسواز بويي العجوز اللطيفة كملاك والتي اشتغل عندها والدي عقب مغادرته أث منديل، لما وصلها خبر الانقلاب واعتلاء الكولونيل سدة الحكم قررت مغادرة البلاد، والحزن القاتل يلفها مثل وشاح أسود. انتشرت إشاعة تقول إن الحاكم الجديد سوف يعدم من بقي من الأوروبيين. رأت في منامها حبل المشنقة يلتف حول رقبتها، فقررت ترك الأرض التي ولدت فيها، وعاشت فيها سنواتها الطويلة. بدت محطمة، حزينة، تعيسة، والدموع لا تبرح عينيها، وهي تصعد في سيارة الطاكسي التي تقلها إلى المطار. السائق الذي كان يقود السيارة حكى لاحقا أن السيدة بويي كانت ترغب في زيارة قبر زوجها الذي اغتيل في الأيام الأولى من انتهاء الحرب من قبل جماعة اليد الحمراء الإرهابية، بسبب المساعدات التي كان يقدمها للمحاربين، إلا أن الفزع الذي استولى عليها جعلها تعدل عن كل ما بإمكانه أن يؤخر وصولها إلى المطار.

شيوخ الحي الذين يعرفون السيدة بويي جيدا، قالوا إنهم فقدوا امرأة طيبة. لم تكن من طراز المعمرين المتكبرين

والعنصريين، بل كانت بالعكس امرأة كريمة، ساعدت الكثير منهم، قدمت العون للرجال، وعلمت نساءهم كيفية الاعتناء بمنازلهن، كما لقنتهن تقنيات طبخ السمك التي لا يعرفن عنها شيئا بحكم أصولهن الريفية. كانت، و هي تسير في الحي متوجهة إلى جهة البحر لاستنشاق الهواء في مساءات الربيع، بقامتها القصيرة، تتكئ على عصا تصنعها بنفسها من خشب شجر الزيتون، وقد غطت شعرها بقبعة من الديس من تلك التي يصنعها الشيوخ بأياديهم في أوقات الفراغ، يتقرب منها أهل الحي، يبادلونها التحية، يستوقفونها أحيانا ليسألوها عن صحتها، فتجيب هي بطيب خاطر وتبدي في الحين سعادتها لأنها اختارت البقاء في هذه البلاد التي ولدت فيها، ولم تفعل مثل باقي المعمرين الذين فضلوا الفرار بجلودهم، بعد أن تواطؤا مع رجال منظمة الجيش السري، فقتلوا الأبرياء ظلما. وبرحيل السيدة بويي ردد أهل الحي : "فقدنا سيدة طيبة".

بقيت فيلا "الطيور" التي كانت تسكنها السيدة بويي، والتي بناها والدها سنة 1905، شاغرة مدة شهر، ولم يسكنها أحد. لم يبق فيها سوى رائحة السيدة العجوز الطيبة، عالقة في كل مكان كأنها تريد أن تقاوم الزمن. وذات يوم قائظ، جرى ما لم يكن في حسبان أحد من أهل حي سان كلو. عند منتصف النهار بينما الشمس تتوسط كبد السماء، وقف رجل قصير القامة، شاحب الوجه، كأنه مصاب بمرض خبيث، يرتدي بدلة أنيقة من تلك التي يرتديها الكولون الإسبان، وقف أمام فيلا "الطيور"، أخرج حزمة مفاتيح من جيب سرواله، فتح الباب، ودخل. جاء حي سان كلو قادما على ظهر سيارة حكومية، سيارة سوداء من طراز دياس بلاس، وكان الشمبيط الوردي يرافقه. زار الفيلا الفسيحة لكنه سرعان ما غادر المكان.

بعد أسبوع عاد الرجل. جاء رفقة زوجته وأبنائه. وشاع في الحي أن غريبا سكن فيلا "الطيور"، واسمه رجل مارس. كما شاع أن الرجل موظف مهيب في الحكومة. حاولوا معرفة اسمه، لكنهم لم يتمكنوا. الشيء الوحيد الذي عرفوه عنه بعد سنة من حطه الرحال في الحي أنه التحق بالثورة في الأيام الأولى من شهر مارس 1962، وهذا ما كانوا يتداولونه في سرية تامة بمقهى الثورة حيث يجلسون، يحتسون كؤوس القهوة والشاي دون انقطاع، بعد ساعات العمل المضنية في عرض البحر على ظهر قوارب الصيد.

لم يعرفوا عنه شيئا، لأنه أحاط نفسه بهالة من القداسة، فتكبر وتجبر، وكان من طراز الرجال الذين يخافون ماضيهم، لأنه لا يشرفهم. يتكبرون، يتعجرفون ويحيطون أنفسهم بهالة تخيف الآخرين حتى لا يتجرأ أحد على مجرد التفكير في الالتفات إلى الماضي. هذا الصنف من الرجال يعني الماضي بالنسبة لهم مواقف مخزية، قذرة، تمزج الخيانة بالجبن، كما يعني السقوط إلى أدنى درجات الانحطاط الإنساني، وكان رجل مارس أحد هؤلاء الذين لا ماضي مشرف لهم. فمن يكون هذا الرجل، رجل مارس ؟ ما اسمه الحقيقي ؟

الرجل الوحيد الذي يعرف الكثير عن تفاصيل حياته، عثرت عليه الشرطة ميتا على شاطئ خليج المنار، سنتين بعد الانقلاب العسكري. قتل بأربع طعنات خنجر، ثلاث في البطن، وواحدة في القلب. علمت بتفاصيل ما جرى بعد تسعة عشر عاما من وقوع الجريمة، رواها لي كثير من شيوخ الحي الذين يقضون أوقاتهم في مقهى الثورة من طلوع النهار إلى غروب الشمس. وبعد أن انتشرت القصة، وصلت إلى مسامع

صحفي جريء تمكن من كشف تفاصيلها الخفية، وأصبحت إحدى أشهر الوقائع التي تناولتها الصحافة بعد تلك الأحداث العجيبة التي هزت البلاد في خريف 1988 ، والتي سميت لاحقا بخريف الغضب التي مكنت الصحفي من كتابة تحقيق صحفي حول تفاصيل الجريمة. وكتب استنادا إلى شهادة رجل كان على فراش الموت يحتضر، أن رجل مارس طلب رؤيته ذات يوم، فأخبره بما يريد، وقال له " أريدك أن تضع حدا لحياة رجل اتصلت به المعارضة السياسية من مدريد، وقد تلقى مبالغ مالية لكي يجند رجالا قادرين على القيام بانقلاب عسكري على الكولونيل".

الرجل الذي كان يحتضر، والذي نفذ عملية القتل، القادم بدوره من وجدة، كان يعتبر نفسه أحد حراس الثورة الذين لا تغمض لهم عين. طبعا، لم يكن يعلم أن رجل مارس كان يستغل حماسه الثوري لتحويله إلى مجرد قاتل. كان مثل الأعمى، ينفذ الأوامر التي تأتيه من رجال نافذين في السلطة بلا تردد ، فالسنوات التي قضاها في مخابرات وجدة علمته أن مناقشة أوامر القادة عبارة عن خيانة وطنية لا تغتفر. طيلة حياته لم يطلق رصاصة ضد الغزاة. كان مكلفا بمراقبة تحركات قادة الثورة في الداخل، وتقديم تقارير مفصلة عنهم، وتحويلها إلى السيد العقيد، ذلك الرجل الصارم، القاسي مثل ديكتاتور، الذي يخفي عينين حادتين وراء نظارات دائرية سميكة. ولما انتهت الحرب، احتفظ بوظيفته داخل جهاز المخابرات. ولما أمره رجل مارس بتنفيذ عملية القتل، التي هي في الحقيقة محاولة لتخليص نفسه من الرجل الذي يعرف الكثير عن ماضيه، وتشكل إحدى مظاهر ربط المصير الشخصي بمصير الدولة، لم

يتوان. وحينما تمت عملية القتل، تنفس رجل مارس الصعداء، وظن أنه سيقضي أيام حياته سعيدا، لكنه لم يكن يعلم أن الرجل الذي قتل على الشاطئ أفضى بتفاصيل كثيرة عنه، وعن كل الرجال الذين تسللوا إلى جسد الثورة بعد مارس 1962، لأحد أفراد الحزب الاشتراكي المعارض، وهو من حرر تفاصيل حياة رجل مارس في عشرة صفحات كتبها بواسطة آلة راقنة من طراز «سينجر»، وبعد سنوات طويلة من تحريرها تحصل عليها الصحفي الذي لم يتمكن من نشرها رغم أنه كان يعمل في صحيفة موالية لتيار الليبراليين الذين شرعوا في القيام بإصلاحات جذرية في البلاد، للتخلص من عثرات سنوات طويلة من الاشتراكية العرجاء، وكانوا ينادون إلى تحرير كتابة التاريخ من سلطة الدولة، ووضع حد للرقابة التي كانت مسلطة على الذاكرة، والتي جعلت رجل مارس ينعم بالهدوء طيلة حياته، ويتحكم في مصائر الناس بتلك الكيفية المخزية التي حولته إلى سيد مهيب وذي شأن، وهم إلى مجرد قطيع من الغنم. لما تحصل الصحفي على الوثيقة، علم أن الرجل اسمه إبراهيم آغا، ولد يوم 5 جويلية 1930، وتبدأ الوثيقة التي يملك بعض رواد مقهى الثورة نسخا منها، كالتالي :

لا بد أن تعرفوا حقيقة رجل مارس، واسمه الحقيقي إبراهيم آغا. بدأ صعوده المثير من ثكنة شرشال في مارس 1956 على ظهر شاحنة عسكرية متوجهة إلى جبال باليسترو بينما كانت الشمس مختفية وراء سحب كثيفة داكنة فيما أخذ العرق يتصبب من جبينه ليس من شدة الحر بل لأن الخوف استولى عليه وشيء يشبه المذلة تحرك في داخله فكاد يستيقظ ضميره فجأة لكنه سرعان ما خفت وكان يعلم أنه متوجه لقتال بني جلدته

فتنفس الصعداء وضغط على سلاحه بيديه الغليظتين اللتين لم تكفا عن الارتجاف، وجسده يهتز بفعل اهتزازات الشاحنة العسكرية السائرة بسرعة فائقة متقدمة قافلة عسكرية طويلة تعبر شوارع المدينة المطلية بيوتها بالجير الأبيض الناصع وعلى طول الأرصفة توقف أبناء جلدته يتأملون الموكب العسكري في ذهول يتلون صلوات صامتة ويتذرعون إلى الإله أن ينصر الرجال الذين انتفضوا لرفع الغبن عنهم في حين كان هو ينظر إليهم باحتقار ويحدق في ملامح وجوههم التعيسة وملابسهم القذرة المتسخة ويراوده إحساس بالاختلاف والتفوق معتقدا أن اختياره بالالتحاق بصفوف الجيش الفرنسي كان في محله. فلو لم يفعل ذلك كان حتما سيبقى قابعا تحت ظلال شجرة زيتون يتأمل بؤس أهله وتفوق الكولون. لذلك اعتبر نفسه ذكيا مختلفا عن هؤلاء التعساء الغارقين في هزيمتهم وقد طلب منه النقيب الفرنسي النحيف الذي كان يجلس أمامه إن كان مستعدا للمعركة فأومأ بإشارة من رأسه بأن نعم وعندما وصلت القافلة العسكرية إلى باليسترو راجت أخبار الهجوم الذي شنه كومندو علي خوجة على حافلة مدنيين فرنسيين قتلوا منهم الكثير بما في ذلك طفلة لا تتجاوز الخمس سنوات فانتشر الهلع وسط الكولون فخرجوا يرحبون بالجنود القادمين من ثكنة شرشال وقد توسطوا المدينة في حشود عارمة وكانت عبارات الانتقام تعلو المكان. وبينما كانت الأصوات المتشنجة تتعالى فأخبر النقيب الفرنسي إبراهيم آغا بأن كومندو علي خوجة يتكون من بضعة أشخاص لكنه يضرب بقوة. ابتسم فأجابه قائلا :

ـ لنلق القبض على أحدهم، نعذبه حتى الموت، نطوف به في أرجاء المدينة وهو غارق في دمه، وبمجرد أن يصل ما جرى لبقية

أعضاء الكوموندو حتى ينتقل الذعر إليهم ويكفا عن قتل المدنيين، أعرفهم جبناء، يخافون التعذيب، يضربون فقط عندما تخور قوانا، أما عندما نقابلهم بالعنف المماثل، فسرعان ما يتقهقرون إلى الوراء.

طأطأ النقيب رأسه وأبدى علامة الرضا. وفي اليوم الموالي خرج الجنود عند الفجر لتمشيط الجبال المحيطة بباليسترو. كان إبراهيم آغا يتقدم كتيبة ضابط مخابرات مولع بالحرب العنيفة وكان البرد شديدا ينهش الأوصال وزخات المطر تتساقط دون توقف. وانبعثت رائحة الحشائش والأشجار البرية ففتح إبراهيم أنفه على هواء نقي راح يسري في كامل جسده وأخذ يرفس بنعليه العسكريين الغليظين الأرضية المعشوشبة كأنه يسحقها بعنف وأخذ في المضي إلى الأمام مندفعا مشتهيا المعركة المحتملة مع المحاربين، تلك المعركة التي تنشر رائحة الموت والدم، وقد ترك الجنود حقول الكروم الشاسعة وراءهم وساروا وسط الضباب المنتشر. ولما بزغت شمس الصباح واختفت وراء غيوم داكنة شرعوا في ولوج غابات كثيفة فأصبح السير شاقا وسط أشجار البلوط المتداخلة فتكون لديه شعور بإمكانية ملاقاة المحاربين في أي لحظة. وبينما كان يفكر أمرهم قائد الكتيبة أن يفتحوا النار على أي شيء يتحرك استعدادا للمعركة وكان الصمت المخيم حولهم يوحي بأن أشياء كانت بصدد الحدوث فسمع على حين غرة دوي طلقات نارية قادمة من أعلى هضبة ظهرت أمامهم فانبطح الجنود أرضا وشرعوا في إطلاق النار باتجاه الهضبة فاشتد القصف وكان يأتي من كل صوب فسمع إبراهيم آغا صياح الجنود الجرحى أمامه وقد اختلط مع دوي الطلقات النارية وصياح المحاربين من الجهة الأخرى، الأمر الذي

دفع الجنود للانسحاب إلى الوراء والتموقع في مخابئ محصنة ريثما تصل الطائرات الحربية إذ اتصل الضابط قائد الكتيبة بمركز القيادة وأخبرها بموقع المعركة وبعد نصف ساعة بدأت أسراب الطائرات تحلق في الأجواء ثم شرعت في إطلاق قنابلها فتحول المكان إلى جهنم وكان أبناء جلدته يموتون وهو يطلق النار صوبهم فدام القصف الجوي ساعة كاملة.

وحينما توقف كانت الأمطار قد شرعت في التهاطل قوية فتكونت أمامه بركة من الماء وبقي يحدق فيها وفي الفقاعات المائية التي تحدثها خيوط الأمطار فارتسمت في ذهنه صور عن طفولته القاسية في دوار بني ريح فتذكر كم من مرة تمرغ في مثل هذه الأوحال وهو يرعى غنم والده القايد التي يشاركه فيها الكولون بيار دو نورماندي الشرير مثل بربري شرس لا يرحم وقد تذكر أنه كان لما يعود بأغنامه من المراعي تقف جيرالدين ابنة دي نورماندي الشريرة مثل والدها وهي لا تزال دون العاشرة أمام مدخل الإسطبل مثل عفريتة تنتظر عودته مع غروب الشمس لتمارس عنفها وساديتها التي ورثتها عن والدها الذي استطاع في ظرف وجيز أن يتحول من رجل بائس غادر قريته التعيسة بالكلفادوس وجاء إلى المستعمرة الفرنسية مرتديا بدلة ممزقة وأحذية سوداء وجسد نحيف بحثا عن الثروة فوجدها بسرعة لم يكن يتصورها بعد أن منحه الحاكم العسكري قطعة أرض واسعة زرع فيها الكروم وصدر نبيذها نحو المتروبول ودفع رشوة بآلاف الفرنكات للقائد العسكري ولم تمض عشر سنوات على قدومه إلى المستعمرة حتى ارتدى بدلة كولونيالية أنيقة وتزوج من فتاة فرنسية قدمت من باريس التي غادرتها عائلتها بعد أن قررت أمها ترك العالم القديم وراءها والخراب

الذي لحق به بسبب الحرب الكبرى التي أرادت زوجها رجلا غير عادي مصابا بأمراض نفسية لم يتمكن الأطباء من إيجاد دواء شاف منها فنصحوها بالهجرة إلى الضفة الجنوبية وأخبروها أن الشمس هي الدواء الشافي لأمراض زوجها النفسية، وبمجرد أن حطت العائلة رحالها بالمستعمرة تعرفت ماري فرانسواز على السيد دو نورماندي و رضيت بالزواج منه بعد أن أدركت أنه يملك المال الكثير لكنه غارق في البلادة والبربرية ولا علاقة له بالذوق الرفيع الذي رافق عائلتها منذ قرون، لذلك قررت الارتباط به في السراء والضراء حسب ما رددته في كنيسة الأسقف جوردان العجوز بمارينغو أين تم القران يوم أحد مشمس وقد فعلت ذلك لإدخال الروح الفرنسية في بيت غاستون حيث كانت تخيم تعاسة لم تأت على إخفائها إلا بعد وقت طويل لحفظ ماء وجه فرنسا المتحضرة في مستعمرتها.

ولما ولدت ابنتها جيرالدين كانت فيلا دونورماندي تشبه أية فيلا باريسية من حيث ديكورها ونوع أثاثها والكتب الموجودة فيها وطاولة الصالون الفاخرة الممتدة على طول عشرة أمتار بخشبها الأحمر المزخرف وكراسيها التي تشبه كراسي صالونات لويس الرابع عشر فأحست ماري فرانسواز بالرضا وهي تتأمل زوجها وهو يسير مثل برجوازي متبخترا ببدلته الباريسية وهي جالسة تحت ظلال أشجار الصفصاف في مساءات أيامها السئيمة قبل أن تتعود على حياتها الجديدة في هذه الأراضي التي ظلت تنظر إليها بعيون إكزوتيكية استقتها من قراءة مذكرات كبار الفنانين الرومانسيين من دولاكروا إلى فرومنتان الذين زاروا البلدة عند نهاية القرن التاسع عشر، بدعوة من جنرالات الجيش الفرنسي لتصوير الحياة في المستعمرة الجديدة

وحمل الفرنسيين على الهجرة إلى حدائق روما جنوب المتوسط وغرس فضائل الإنسان المتحضر في بلاد بربرية متوحشة. وكانت تجلس تحت ظلال أشجار الصفصاف وتزجي وقتها في قراءة الروايات التي تصلها من دور النشر الباريسية بالأخص من تلك التي تأثرت بأفكار نابليون الثالث الذي زار البلدة سنة 1865 رفقة زوجته الإميراطورة حاملا معه أفكارا متحضرة إنسانية فيها كثير من التفهم والرأفة على العرب والبربر بعد أن أدرك أن الغزو والاستعمار لم يغير أوضاع أهالي المستعمرة بقدر ما حولهم إلى بهائم يرزحون تحت نير عبودية الكولون المدعومين من قبل جنرالات الجيش.

وقد جاء نابليون الثالث إلى البلدة للقضاء على شوكة هؤلاء فتجرأ على التصريح أمامهم "أن فرنسا لم تأت للقضاء على جنسية شعب " فاستحدث حكما مدنيا وأراد أن تتحول المستعمرة إلى مملكة عربية تستنهض حقيقة روح الحضارة اللاتينية وتضع حدا لتجاوزات الجيش والكولون من ملاك الأراضي المتخلفين الذين أطلقت عليهم تسمية الأقدام السوداء الذين لا علاقة لهم بالثقافة الفرنسية لذلك قرر نابليون الثالث أن يرسل إلى المستعمرة فئات برجوازية كلفها بمهمة الخدمة في الإدارة الاستعمارية والسير نحو إعطاء العرب والبربر حقوقهم المدنية، إلا أن الكولون المتكبرين الواثقين من أنفسهم المتواطئين مع جنرالات الجيش الذين يرعون مصالحهم ويقايضون المهمة الحضارية برشوة تجعلهم يحلمون باستعادة مجدهم الضائع في الحروب الأوربية لذلك وقفوا بالمرصاد لنابليون الثالث واعتبروا أفكاره بمثابة خيانة للمثال الكولونيالي وضربة في الظهر لم يسكتوا عنها.

وبعد مرور أكثر من نصف قرن عن هذه الزيارة أرادت السيدة غاستون أن تجسد هذه الأفكار ودعت زوجها إليها دون أن تخبره بذلك فرغبت في أن تؤثر في عقله البليد وفي شخصيته الضعيفة معولة على قدرتها في التأثير فيه بسبب ضعفه الثقافي، وكانت متأكدة من إمكانية تغييره وفي داخلها كانت واثقة من أن المهمة الحضارية للاستعمار يجب أن تبدأ من الكولون أمثال زوجها قبل الشروع في تحضير السكان الأصليين المغلوبين على أمرهم والمستسلمين للقدر بشكل مخيف؛ لكن آمالها سرعان ما خابت لما فشلت في جعل ابنتها تكتسب تربية رفيعة مثل الفتيات الباريسيات المزدهرات مثل فتيات بروست اليافعات، فالبنت عنيفة مثل والدها، فاقتنعت أن البلادة تنغرس في الجينات، بالأخص لما أدركت أن ملامح ابنتها هي نفس ملامح زوجها غاستون إذ لها نفس الأنف المفلطح ونفس العينين ذات النظرات القاسية ومثله تكون لديها نفس الميل نحو احتقار العرب والبربر، والتلذذ برفسهم مثل حشرات مضرة.

فكانت تنتظر إبراهيم آغا وهو طفل وراعي غنم أمام باب الإسطبل عند غروب الشمس واقفة منتصبة بجسدها الممتلئ، واضعة يديها على خصريها، وكانت تطلب منه أن يتوقف في مكانه بمجرد خروجه من الإسطبل ثم تقترب منه وتضع عمودا من القصب مسكته بيدها اليسرى وتمرره على وجهه بينما هو ساكن في مكانه لا يتحرك إلا بأمر منها وتظل هي تمسك عمود القصب وتنزله نحو صدره ثم بطنه ولما تصل به إلى ذلك المكان الحساس عند عضوه يحمر وجهه وتضحك هي ضحكات ساخرة فتطلب منه أن يفتح أزرار سرواله فيطأطئ رأسه ويستجيب

لطلبها فينتصب عضوه إلى الخارج غليظا برزت عروقه من شدة الانتفاخ وتضع هي عمود القصب على رأس العضو ثم تقول بسخرية قاصدة إهانته :"قضيب بائس لا قيمة له، قضيب الفرنسيين أكثر إثارة، يا لك من مسكين" فيشتد غيظ إبراهيم ولا يقوى على فعل أي شيء، وانتصب كالعبد الفاقد لحريته فظهر كإنسان بلا إنسانية. تلك هي وضعيته وهو واقف أمام هذه الفرنسية الوقحة الراغبة في تحويله إلى إنسان يعيش أكثر الأوضاع انحطاطا. و لما تنتهي من مداعبة عضوه بتلك الطريقة المخزية تطلب منه أن يتمرغ في بركة مائية كان واقفا أمامها وقد بلغت الفتاة قمة السادية وهو في أكثر الأوضاع خنوعا فيستجيب لطلبها ويلقي بجسده النحيف في البركة المائية ثم ينهض و حينها تقرر هي الانصراف ضاحكة ساخرة وقد تركت عمود القصب أمام وجهه المبلل فيحس بالإهانة تفتت جسده وتعذبه وتفكك رجولته ولما يقف على قدميه مجددا ينظر إلى السماء ويردد في داخله : "سأصبح مثلكم يوما، ولا أحد سيتجرأ على رميي في الوحل يا أبناء العاهرات"،

وفي تلك الليلة فكر كثيرا ولم ينم إلى غاية اقتراب الفجر ففكر في أن يصبح مثل المعمرين ومن ذلك اتخذ قرار الانخراط في الجيش الفرنسي وقد أراد أن يشبه السيد دو نورماندي، لتفادي احتقار تلك اللعينة جيرالدين، و لم لا يتزوجها يوما وينام معها في سرير دافئ يجعلها تصغر أمامه وهو يضاجعها بسادية وعنف في أوقات الصباح والمساء ؟ فتوقف عند هذه الفكرة واعتبرها بمثابة خلاصه. وفي اليوم الموالي توجه إلى الثكنة القريبة وأبدى استعداده للتجنيد، فقال له نقيب قصير القامة يسبح في بدلته الكاكي :"انتظر أن يصلك استدعاء

التجنيد الإجباري". وبعد أربع سنوات جاءه الاستدعاء فلبى الدعوة مسرورا وارتدى البدلة العسكرية الفرنسية وسار في شارع القرية الرئيسي متبخترا مزهوا ينظر إلى العرب باستهزاء والفرنسيين بالند فدخل مقهى ليون لأول مرة في حياته ولا أحد منعه أو اعترض طريقه فالبدلة العسكرية فتحت له الطريق فتعلم الفرنسية خمس سنوات في الجندية كانت كافية مكنته من أن يصبح رجلا جديدا يتلذذ بشرب الجعة الباردة والنبيذ الأحمر عند الأكل ويتردد على ماخور المدينة المجاورة مرة كل يوم أحد ينكح العربيات بنات جلدته ببضعة فرنكات ثم يذهب إلى السنيما لمشاهدة أفلام رعاة البقر. أما السيدة غوستاف حينما وصلها خبر انخراطه في الجيش قالت لزوجها في السيارة التراكسيون بينما كانا متوجهين للبحر لقضاء يوم عطلة : "أُنظر كم هو تعيس ابن القايد ذلك الراعي في بدلته العسكرية" فقد أغضبها ما أقدم عليه وأدركت أنه مجبول على القوة مثل زوجها قبل أن تمسده بعطر الثقافة الباريسية وماء الزهور التي كانت تستقدمها من غراس بالقرب من مدينة كان الساحلية، كما أدركت أن زوجها غوستاف مارس عليه تأثيره بشكل لا يترك مجالا لكي تنمو شخصيته بكيفية مستقلة، وكان هو معجبًا به إلى درجة الذوبان فيه.

توقفت الأمطار عن التساقط واختفت الفقاعات المائية التي كانت تعج بها البركة المائية أمامه وهو مختف وراء الصخرة، بينما كانت الطائرات تقصف مواقع المجاهدين فيما هو غارق في ذكرياته وقد تمكن الجنود من نقل الجرحى وأصدر الضابط تعليمات بالسير إلى الأمام بعد أن تأكد من انسحاب المحاربين وقد منعتهم شدة القصف حتى من نقل قتلاهم فتركوهم واختفوا

في الغابة وكانت الهضبة مجالا محررا أمام الجنود فصعدوا بدون خطر وسط موتى منتشرين في كل مكان وظهروا للعيان كجثث هامدة وهم مجاهدون في مقتبل العمر كأنهم أطفال صغار تشع البراءة من وجوههم كالنور رغم الموت وتبين أن بعضهم لم يكن يحمل حتى السلاح وربما كان يتربص فرصة اغتنام سلاحه من الجنود، لكنه مات بدون أن يملك بما يدافع به عن نفسه، مات كما صعد إلى الجبل مرتديا برنوسا بنيا وعلى رأسه وضع شاشا أبيض مات في هيئة فلاح خرج لخدمة أرضه.

تقدم الضابط قائد الكتيبة من إبراهيم آغا وأخبره قائلا:

ـ نريد المساجين أحياء، رجال الاستعلامات بحاجة لهم لاستنطاقهم.

أجابه قائلا :

ـ حاضر سيدي.

كان ينتقل بين الموتى بحثا عن الجرحى يضع قدمه اليمنى على وجوههم ويضغط عليهم بعنف ليتأكد إن كانوا أحياء أم موتى. غالبيتهم لفظوا أنفاسهم لم يعثر على أي جريح إلا بعد أن تقدم في السير وسط أشجار البلوط الكثيفة فهو يعلم جيدا أن الزمن الذي يفصل بين توقف القصف الجوي وتقدم الجنود إلى الأمام كان كافيا لانسحاب الجرحى إلى أشجار البلوط للاختباء بينها وانتظار أن يغادر الجنود ساحة القتال لتعقب آثار الأحياء منهم الذين يكونوا قد قطعوا مسافات طويلة بحثا عن مغارات يحتمون فيها ولا يبرحونها إلا بعد أيام أو أسابيع طويلة، يقتاتون على الحشائش البرية، ويشربون الندى العالق بها في أوقات الصباح.

كان يمشي مشهرا سلاحه وسط الغابة بين مجاهدين موتى بعضهم مشوه، أجسادهم مهشمة مطحونة مفتتة مقسمة إربا وهو يستأنف سيره غير آبه بهم لا رحمة ولا رأفة في قلبه فيحكم قبضته على سلاحه ويحترس أكثر وفجأة يتوقف، فقد أبصر شيئا يتحرك بالقرب من شجرة توت بري، يسرع خطاه و لما وصل إلى مقربة من المكان غاص في الشجرة وأثر على مجاهد جريح مختبئ يصيح فيه بالعربية ويطلب منه أن يلقي بسلاحه جانبا ويسلم نفسه فيمسكه من قفاه ويخرجه من مخبئه وهو يتألم من شدة جراحه. أصابته رصاصة في الفخذ وأخرى في الكتف ولم يقدر على الفرار.

لم يشفق عليه رغم أنه كان يئن مثل طفل صغير بل راح يسحبه وكان السجين يصيح ويتوجع فناشده أن يرأف به وكلمه بالعربية " الرحمة يا خويا"." مانيش خوك ياكلب" أجابه إبراهيم قائلا " أنا مانيش كلب، الكلب هو أنت". خاطبه بكبرياء ثم بصق في وجهه وألقى به أرضا وضغط برجله على مكان إصابته، فراح يئن أكثر، " يا كلب، أنت كلب حركي، ينعل والديك". يضغط أكثر. يصيح ، يصيح باكيا ، و يستمر إبراهيم آغا في سيره، يحمله إلى ضابط الكتيبة، يبتسم، راودته الفرحة، فرحة تعذيب رجل لا يقاوم، منهزم، وقف أمامه مزهوا ، أخبر الضابط قائلا :

ـ إنه حي.

فأجابه الضابط :

ـ أحكم وثاقه، ثم خذه إلى هناك.

أشار الضابط برأسه إلى أسفل الهضبة حيث كان يحوم بضعة جنود حول ثلاثة مساجين، كانوا جرحى لا يقدرون على الحركة،

غارقين في دمائهم، فوهات البنادق كانت مشهرة نحوهم. حمل إبراهيم آغا سجينه إلى هناك وألقى به بعنف وسط الجرحى الثلاثة فتمرغ في الأرض وبصق في وجهه مجددا فانتفض رغم جراحه ورد ببصق مماثل فضربه في قفاه فتكور متألما وراح يصيح فلاحظ الضابط الفرنسي ما أقدم عليه فصاح فيه من مكانه أنه يريده حيا و فيما كان الضابط قادما إلى حيث أحكم رباط المساجين الجرحى انسحب إبراهيم آغا إلى الخلف وجلس على صخرة صغيرة ونزع قبعته. وضعها جانبا، أخذ سيجارة من معطفه، أشعلها وراح ينفث فيها ويتأمل السماء التي لم تسترجع بعد زرقتها بالرغم من توقف الأمطار المفاجئ. نال منه التعب، واشتهى النوم.

جاء الضابط متبوعا بجندي طويل القامة، مفتول العضلات، كان يسير أمامه في صمت. مسك بيده اليمنى رشاشا، وكان يسير بعنف كأنه يسحق الأرض بحذائه العسكري، وينفث من سيجارة غولواز بدون مصفاة، سرعان ما ألقاها على الأرض. ومن عينيه السوداوين انبعث الشرر والقسوة. كان رجلا مخيفا. ظل صامتا، فيما شرع الضابط في استنطاق أحد المساجين. كان يرتعد من شدة الخوف. وجهه النحيف غزته لحية كثيفة، وكان مكبلا بحبل غليظ. كلمه الضابط الفرنسي، ثم ترجم الرجل الطويل مفتول العضلات، قائلا :

ـ أين فر زملاؤك المحاربون ؟

تلعثم الأسير، وأجاب مرتبكا :

ـ لست أدري.

تكلم بكبرياء، أراد إخفاء خوفه.

أخبر الضابط مترجمه قائلا :

ـ قل له أن يخبرنا إن كانوا توجهوا إلى دوار الشرفة، أم أنهم قصدوا المغارات في الجبال.

ترجم الرجل الغليظ، ورفض الأسير الإدلاء بأي سر.

توالت عليه الأسئلة، وبقي هو يحدق في الضابط الفرنسي، قوته كانت في صمته، في مقاومته، في كسب الوقت، وإعطاء الفرصة لزملائه لكي يبتعدوا عن مكان تواجدهم، في هذه اللحظة كان يعيش من أجل الآخرين، كان يجب إنقاذهم، أما هو فحياته انتهت، كان يعلم ذلك بمجرد أن أمسكوا به، كان يدرك أن حياة الآخرين وبقاءهم ونجاتهم يعني بقاء كرامته، لقد تعلم قبل أن يلتحق بالجبل، أن عليه أن ينكر ذاته وأن يموت في سبيل الآخرين.

أزعجته مقاومته. صمته وعناده أثارا فيه إحساسًا بالخزي، عار عليه وخزي على نفسه، كان يراه أكثر رجولة ونبلا منه. وكلما استمر في الصمت كان يرفع رأسه، وفجأة نظر إليه، كان يتحداه هو العربي مثله. كان الغضب يمور في داخل إبراهيم أغا، فنهض من مكانه، وتوجه إلى المحارب، دفع من صادف في طريقه بعنف، فأنزل عليه ضربة قدم نزلت على وجهه كالصاعقة، سال الدم من فمه وأنفه، ومن رأسه، فقد المسكين وعيه وانطرح أرضا. نظر آغا صوب الضابط، وقال له:

ـ سأتكفل بأمره. سأدفنه حيا.

هز الضابط رأسه وترك إبراهيم آغا يفعل ما يريده بالأسير. وحينما استيقظ المسكين، كان أحد الجنود قد أحضر له قارورة ماء، صبها على وجهه، فاستعاد وعيه كلية، نظر إلى سجانه بخوف، وأدرك مصيره التعيس. ضربه مجددا، بيده الغليظة

هذه المرة، فسال مزيد من الدم من أنفه، أمره الجندي آغا أن يتكلم، قال له :

ـ أين اختبأ هؤلاء الكلاب يا بن الكلبة، تكلم وإلا قتلتك.

لم يتكلم. ضغط إبراهيم على رقبته بيده. اختنق. قطع تنفسه. تكلم يا بن الكلبة. لم يفعل. طلب منه أن ينهض. نهض المسكين. حمله إلى جذع شجرة، أحكم وثاقه. أخذ سكينا حادة من جيب سرواله، ثم مزق ثيابه، وضع السكين على صدره. قطع لحمه. أخذ الأسير يصيح، فأحس باللذة وهو يقطع لحمه. بكى من كثرة الألم، وأحس إبراهيم آغا بمزيد من اللذة، وفجأة أعطاه المعلومة، خرجت من فمه بوجع:"انهم مختبئون في دوار بوربيع". لم يقاوم أكثر، لم يصمد المسكين، خارت قواه، ولاحت الابتسامة على وجه إبراهيم، نظر صوب قائد الكتيبة مزهوا بما حققه، فترجم إلى الفرنسية ما باح به ابن جلدته. اقترب منه الضابط، ربت على ظهره، فقال :

ـ قمت بعمل جيد، عمل قذر لكنه جيد، نحن بحاجة لمثل هذه القسوة أثناء الحرب، الحرب ليست خالية من القذارة، بل إنها القذارة.

ذاع صيت إبراهيم آغا وسط الجنود الفرنسيين، وأصبح يلقب بـ"لوبورو". إبراهيم لوبور. استدعته القيادة المركزية إلى العاصمة، وكلفته باختراق صفوف الفدائيين خلال معركة المدينة، وبفضله تمكن ليجيي من إنجاح عملية الزرق وتكسير خلايا الثورة في العاصمة، ثم أرسل في مهام اختراق أخرى، وفي كل مرة كان ينجح في الحصول على معلومات ثمينة. أصبح مع مرور الزمن أحد رجالات القيادات العليا في الجيش،

يتكلون عليه للقيام بعمليات الاختراق، وقبل نهاية الحرب بسنة أرسلوه إلى باريس لدراسة تقنيات الجوسسة. ولما عاد إلى البلاد في جانفي 1962 أخبروه أن الحرب ستنتهي قريبا، وكلفوه بمهمة اختراق صفوف المحاربين، فغادر البلاد إلى غارديماو في شهر فيفري. بطلب من القيادة العليا للجيش الفرنسي طبعا، وبمباركة من ثلاثة جنرالات، مكلفين بملف التحضير لما بعد مغادرة المستعمرة وكيفية حكمها والاستمرار في استغلالها من بعيد، فبدأت المأساة، مأساة الخيانة. تحطيم الثورة. بداية الثورة المضادة. الاختراق. الغد المجهول. اليأس. غارديماو.. غارديماو الخيانة.. بؤرة الأفاعي.. مكان التكوين.. نشأة.. رجال لم يحاربوا.. عديمو الشجاعة.. دخل منهم نفر قليل.. شجعان ماتوا إلى جانب إخوانهم.. عبروا الخط المكهرب.. والباقي لا قيمة له.. استهوتهم غارديماو.. ظلوا في المكان... ينتظرون الاستقلال.. يشاهدون أفلام الوسترن.. ويترددون على المواخير.. ينكحون العاهرات المتعاطفات مع الثورة... قضوا سنوات الحرب الطويلة وهم يتعلمون تقنيات التسلط واحتقار المحاربين في الجبال.. أصبح إبراهيم آغا واحدا منهم.. منحوه بذلة عسكرية غير بدلة الكاكي التي كان يرتديها.. كان ذلك في أواخر شهر مارس من عام 1962.. ذلك الشهر المبارك عليه وعلى جميع جنود غارديما والذين استولوا على السلطة في صيف ذلك العام.. دخلوا البلدة مدججين بالأسلحة.. قاتلوا المحاربين في معارك طاحنة.. حربا أهلية.. نهاية الثورة.. مات المحاربون.. انتصر إبراهيم آغا.. رفس محاربي الجبال .. قتل منهم الكثير.. دخل العاصمة على ظهر دبابة.. وفي عام 1965 بعد الانقلاب بأسبوع دخل حي سان كلو، وفي جيبه بطاقة مجاهد.. مجاهد مزيف.

.4

كان يأتي إلى حي سان كلو طفل يدعى مجيد. كان طفلا نحيف البنية، متوسط القامة، شعره أسود، وعيناه صغيرتان لونهما بني، يعلوهما حاجبان كثيفان. كان يرتدي ملابس رثة، ومثلنا جميعا، كان ينتعل حذاء مثقوبا في الأمام. كان يسكن بعيدا عن سان كلو، على الطريق المؤدية إلى العاصمة. راح يقترب من يوم لآخر، إذ لم يكن يعرف أحدا منا. حينما أبصرته لأول مرة، وهو متكئ على شجرة صنوبر تتوسط الحي، قلت لعميروش :

ـــ يريد اللعب معنا.

نظر عميروش صوب الشجرة، وقال :

ـــ تعال نذهب إليه.

مشينا نحوه تحت شمس الصيف الحارة. لما اقتربنا من شجرة الصنوبر، قلت له :

ـــ هل تريد اللعب معنا ؟

ابتسم، وقال :

ـــ نعم.

طلب منه عميروش اسمه فأجاب على الفور:

ـــ مجيد.

وسألته بدوري :

ـــ أين تسكن.

ـــ على الطريق الكبيرة.

كان طفلا رقيقا. ملامح وجهه الملائكية مازلت أحتفظ بها إلى اليوم، وها أنا الآن أتساءل كيف بإمكان طفل وديع مثله

أن يتحول إلى قاتل يذبح الأطفال دون أدنى شفقة، ويرتكب مجازر تداولتها صحف العالم، ومعها صور فظيعة لأطفال أجسادهم مشوهة، مقطعة، ملقاة على قارعة الطريق. مازلت أذكر أنه كان يختزن تعاسة لم أكن أبصرها آنذاك بسبب صغر سني، لكن هاهي تمثل أمامي اليوم، إذ وراء نظرته كان يخفي ألما دفينا جعله يحس بالخيبة التي تحولت لاحقا إلى حقد دفين، انفجرت فجأة وحملته إلى الجبال ساعيا وراء الوهم الذي زُرع فيه في مساجد الأئمة الجدد، والحقيقة أنه أراد الثأر لنفسه من تصرفات إبراهيم آغا تجاه أمه.

لم أكن أعرف عنه أي شيء آنذاك، كنا نلعب سويا، ونركض في كل الاتجاهات، سعداء بطفولتنا، يغمرنا الهدوء والإحساس بالطمأنينة. وذات يوم وجدته جالسا بمفرده على صخرة عالية ناحية البحر. كان الصيف قد حط رحاله منذ بضعة أيام. ذهبت صوب الميناء لانتظار عودة والدي من الصيد، فوجدت مجيدًا وحيدا يبكي، ويرتعد من البرد. قلت له :

ـــ واش بك يا مجيد.

التفت نحوي، فأدركت أنني فاجأته. مسح دموعه بكم معطفه الأسود، ورد قائلا :

ـــ والو.

ـــ ولماذا تبكي إذن ؟

ـــ أبكي على والدي.

نهض من مكانه، وقال لي :

ـــ لو كان والدي حيا، فإنه ما ترك ذلك الحقير يدخل بيتنا أبدا.

مشينا سويا في الطرق النازلة إلى الشاطئ، فسألته :

ـــ وماذا يفعل إبراهيم آغا في بيتكم ؟

لم يجبني، طأطأ رأسه، وركن للصمت. ولم أدرك ما كان يفعل الرجل في بيت مجيد إلا بعد رواج أقاويل مثيرة في الحي. قيل إن الرجل يتردد على بيت على الطريق الكبيرة حيث تعيش أرملة في الثانية والعشرين من العمر، مات زوجها في حادث مرور، فترك لها ابنا في السابعة من عمره.

لم يكن إبراهيم آغا يهتم بمشاعر الطفل الصغير الذي كانه مجيدًا آنذاك. يدخل المنزل من الباب الخلفي، في سرية تامة كل يوم مع غروب الشمس متفاديا أنظار الجيران، وقد حمل للأرملة شيئا لذيذا، فتعد هي القهوة، ويتسامران إلى غاية الهزيع الأخير من الليل، فيما يكتم مجيد غيظه وهو جالس في غرفته يبكي أو ينسج في مخيلته أفكارا وطرائق للتخلص من الرجل الغريب الذي أخذ مكان والده.

انتظرنا أنا ومجيد والدي إلى غاية غروب الشمس، لكنه لم يظهر له أثر عند عرض البحر. كنت أعرف أن والدي لما يتأخر إلى ما بعد الغروب يكون الحظ قد أسعفه. وفيما كنت أتحدث مع مجيد سمعته يقول لي، وقد تبدلت ملامح وجهه :

ـــ لما أكبر سوف أقتل ذلك الرخيص.

جثمت في مكاني، وقد انتابني الذعر. أبدى مجيد رغبته في قتل رجل مارس بكيفية جعلتني أحس في الحال أن ما قاله سوف يتحقق. لست أدري إن كانت ملامح وجهه وهو يفصح عن رغبته، هي التي جعلتني أتنبأ بوقوع جريمة القتل لاحقا، أم أن في الأمر شيئا آخر. المهم أن مجيد برزت عيناه من شدة

الغضب، وكانت يداه ترتعدان، وهو يمسك عود حطب سرعان ما تهشم بين يديه. لقد رصدت بوادر العاصفة القادمة بشكل لا مندوحة منه.

أسبوع بعد هذه الحادثة، وقع ما فجر غضب الطفل المقهور. كنا في الجهة الغربية للبحر، أنا عميروش ومجيد، على مرتفعات صخرية نصطاد سمك البوري. كان البحر هادئا، وأشعة الشمس كانت تنعكس على مياهه. لم يكن الصيد وفيرا ذلك اليوم، وكانت الشمس حارقة، كأنه الصيف. كان البحر هادئا إلى درجة الصفاء، فكنا نرى البوري وهو يقترب من الطعم المشدود في الصنارة. كنا جالسين على الصخرة الواحد جنب الأخر. كانت الصخرة صغيرة، لذلك كنا ملتصقين، وفجأة حدث وأن تشابكت خيوط الصيد بين عميروش ومجيد. تشابك بشكل معقد، فغضب عميروش بسرعة، وقد عجز عن فكها. في البداية ظل مجيد صامتا، راح يحاول فك العقدة التي تشكلت، إلا أنه لم يفلح، فارتفعت حدة غضب عميروش، وسب مجيد، قائلا :

ـــ يلعن دين أمك، يا حمار.

برزت عينا ابن الأرملة، أمسك عميروش من رقبته، محاولا إلقاءه في البحر. تماسك عميروش، وكان أقوى بنية، وتوصل إلى دفع مجيد إلى الخلف، وقال :

ـــ ابن العاهرة مثلك لا يضربني.

ألقى مجيد قصبة صيده أرضا. امتلأ غضبا، فصوب ضربة قوية نحو وجه عميروش، فتطاير الدم من أنفه، وسال على ثيابه. قال مجيد :

ـــ لو قلت ثانية أنني ابن عاهرة فإنني أقضي عليك.

مسح عميروش الدم السائل من فمه، فقال :

ـــ أنت ابن عاهرة، وأمك عاهرة ينكحها إبراهيم آغا كل يوم.

تشابكا مجددا، وراح كل واحد يسدد لكمات للأخر. وقعا على الأرض الصخرية فتمرغا فيها. كان مجيد يصيح صياحا هستيريا، مرددا أنه سيقتل عميروش.

لم أتمكن من الحيلولة دون شجارهما. لقد أصرا على الشجار، فقال مجيد :

ـــ سأقتلك اليوم أو غدا، أنت وإبراهيم آغا سأقتلكما، حينها ستدرك أنني لست ابن عاهرة.

.5

عند نهاية كل شهر، كان والدي يأخذني إلى بلدة غيوت فيل ليقص لي شعري. يتركني عند سي شريف الحلاق الذي يقصده أهل عرش مزالة الذي تنتمي إليه عائلتي، ويتركني عنده المساء بطوله، فهو يعرف أن الحلاقة عند سي شريف تستغرق وقتا طويلا، فالرجل يقسم وقت عمله بين الحلاقة وسرد قصص عجيبة عن الحرب الكبرى، يستمع لها زبائنه بلذة كبيرة، غير آبهين بالوقت الذي يمضي، وهم قابعون في قاعة حلاقة صغيرة عديمة التهوية، تملأ الرطوبة جدرانها. كان يقف بقامته القصيرة، ووجهه المليح، ذي القسمات الرومانية، والعينين الزرقاوين الصغيرتين، فيسرد قصصا مثيرة عن ذلك العقيد المهيب الذي قتل مئات الطلبة الذين استجابوا لنداء

الثورة، والتحقوا بالجبال سنة 1956 ، فلاحقتهم لعنة الكومندان ليجي ذلك الجندي الحذق الذي يتقن لغات البلاد من عربية وبربرية وشاوية تعلمها قبل أن ينخرط في صفوف الجوسسة. بيد أن سي شريف كان يسرد تفاصيل هذه الواقعة التي سميت لاحقا بقضية لابلويت، وفق الأطروحة الرسمية السائدة آنذاك، فراح يدافع عن العقيد المهيب، فينعته بالمحارب الباسل تارة، والقائد العادل تارة أخرى، فيخبر زبائنه أنه لم يخطئ وهو يقص رقاب طلبة في مقتبل العمر تركوا مقاعد الدراسة، بعد أن كتبوا رسائل وداع لأوليائهم، وربما لعاشقاتهم، في المدن، تاركين وراءهم كل شيء، الدراسة والمناصب التي كانوا سيحصلون عليها بعد انتهائهم من الدراسة، لقد سلكوا نهجا وطنيا لا يرق له الشك، رغم وعود الغزاة بمنحهم مناصب محترمة في الإدارة بعد التخرج، إلا أن العقيد رأى عكس ذلك، أقنعه أحد مساعديه بأنهم مجرد خونة مندسين في صفوف الثورة أرسلتهم القوات الاستعمارية لاختراق صفوف المحاربين، والعمل لصالحها. لم يكن سي شريف ينعت هؤلاء الطلبة بالوطنيين بل بالخونة الذين تمت تصفيتهم، فكان يروي أنه هو من تكفل بذبحهم الواحد تلو الأخر في غابات أكفادو، فكان الدم يسيل غزيرا وصل حسب الحلاق الفخور بعمله إلى غاية الأودية المحاذية بالمنطقة.

راح سي الشريف يسرد تفاصيل قصته، وهو يقوم بمضي موسى الحلاقة على قطعة من الجلد، فيما أنا جالس وسط الزبائن، وقد تركني والدي وحيدا، وذهب إلى مقهى شهير يدعى قهوة بوقلار لاحتساء قهوة يعدها قهواجي متمرس على الجمر، وكنت أرتجف وأنا أستمع للحلاق وهو يسرد بزهو

وافتخار، كيف كان يمسك هؤلاء الطلبة من قفاهم، ثم يبصق على وجوههم الطرية، فيضعهم بين رجليه، ثم يضع موسى لامعة فوق الرقبة، فيذبح كأنه يذبح خروفا. كانت الكلمات تخرج من فم الحلاق سلسة، بدون أدنى صعوبة، فلم يكن يساوره أي إحساس بالندم ولا شيء من هذا القبيل. وفيما أنا أرتعد من شدة الخوف، وأرتجف، نهضت من مكاني، وغادرت قاعة الحلاقة مسرعا إلى الخارج، فتقيأت قيئا متواصلا من شدة الذعر. تبعني سي شريف، وباقي الزبائن، مسكني أحدهم من خصري فساعدني على القيء، ولما لفظت كل ما في معدتي، أعطاني زبون آخر قارورة ماء غسلت بها فمي ووجهي، وحينما استدرت خلفي وجدت الحلاق واقفا، وفي يده موسى الحلاقة، فقال لي وهو يقترب مني :

ـــ أشو كيوغن أميس مزيان ؟ (ماذا حل بك يا إبن مزيان ؟)

قلت له :

ـــهلكغ (أنا مريض.)

ـــ أنيذاث بابك ؟ (أين والدك ؟)

ـــ في مقهى بوقلار.

أدخلني القاعة، ومسكني من كتفي بيده اليمنى، فتخيلتها ملطخة بالدم.

جلست في مكاني ثانية، أنتظر والدي، فيما عاد سي شريف إلى قصته يسردها بالتفاصيل ذاتها، والإلحاح ذاته، مصرا على اعتبار هؤلاء الطلبة خونة، محرفا وقائع الثورة، سائرا إلى الأمام دون هوادة، فأخبرنا أنه ذبح في اليوم عشرين

خائنا ثبتت إدانتهم بعد محاكمة ترأسها أحد مساعدي العقيد. كنت أتابعه من مكاني، مصوبا نظراتي نحوه، محدقا في عينيه الثاقبتين تارة، وموسى الحلاقة التي كان يمسكها بيده اليسرى تارة أخرى. كنت كأنني أمعن النظر في تحركات شخص يريد لي الأذى، بينما هو يسترسل في قصته التي اكتشفت زيفها لاحقا، وأدركت أن العقيد لم يكن على حق مثلما كان يدعي الحلاق، بل ارتكب خطأ فادحا فانساق كالأعمى وراء مؤامرة دبرها ذلك الكومندان ليجيي في مكتبه بالقصبة السفلى بعد انتهاء معركة الجزائر، عندما أقنع فتاة تدعى روزا بالعمل معه كعميلة نظير أن يخلصها من متابعة رجال الشرطة الذين كانوا يبحثون عنها في أزقة القصبة بتهمة نسج علم وطني، فتمكن من إقناعها أن الطلبة الذين التحقوا بالمحاربين خونة مندسون.

والحال أن سي شريف لم يكن يعلم أن الغيرة هي التي كانت تقف وراء الأوامر التي تلقاها لذبح ذلك العدد الهائل من الطلبة، فالمحاربون الذين خاضوا الحرب في الجبال كانت لهم سلبياتهم ولم يكونوا أبطالا أسطوريين كما كان يريد إيهام زبائنه الذين كانوا يترددون بكثرة على متجره، للاستماع لمزيد من القصص والمرويات البطولية التي تشفي غليلهم. لم يكن سي شريف إذًا يعلم أن الكومندان حسان الذي اكتشف خيوط ما ظن أنها مؤامرة، وقع في غرام روزا التي أرسلها ليجي إلى الجبال لزرع قنبلتها، إلا أنها ردته، وفضلت رجلا من المدينة، متعلما التحق بالجبال كطبيب، فتكون لدى الكومندان حسان عقدة الغيرة من المتعلمين وسكان المدينة الذين لم يكن يثق فيهم حتى قبل صعود روزا إلى الجبل لكسر قلبه وجعله يكتوي بنار

الحب. ولما ألقت روزا بقنبلتها، وقالت له"أنت محاط حولك بعدد هائل من الخونة"، صدقها، فعثر على الفرصة المناسبة للانتقام من غريمه الطبيب الذي ألهب قلب روزا بقصائد الحب والثورة، فيما كان هو يجهل حتى كتابة اسمه، ظانا أن قدرته على محاربة العدو كافية لإسقاط امرأة في حبائل حبه.

هكذا جرت الدماء في أكفادو بسبب غيرة كومندان تأجج قلبه حبا، فيما سي شريف الحلاق الذي لم ينل شيئا من التعليم ولم يدخل المدرسة يوما ظن أنه قام بعمل وطني كبير يستحق عليه الثناء والتعظيم والإجلال بما يكثر زبائنه، فتزيد أرباحه، ويصبح الحلاق الأكثر جلبا للزبائن في بلدة غيوت فيل كلها.

لما عاد والدي من المقهى، صافح الحلاق، وجاء نحوي، نهضت من مكاني فتركته يجلس، إذ لم يجد كرسيا شاغرا. أخبره الحلاق بما جرى لي، فسمعت والدي يقول له :

ـــ إنه ولد حساس جدا، يقرأ كثيرا من الكتب.

اعتبرت ما قاله والدي على مسمع رواد قاعة الحلاقة إهانة كبيرة لي، فما معنى أن يقول عني أنني حساس، إن لم يكن ذلك سعيا لإظهاري في صورة ولد ضعيف لا يقدر على تحمل قصة عن تفاصيل الذبح. هكذا فكرت حينها.

لما جاء دوري، نزع مني والدي معطفي، فوضعه على مشجب خشبي. كنت أرتعد من الخوف، وأنا أصعد إلى كرسي الحلاقة. جلست رغم الذعر. ألبسني سي شريف مئزرا لونه أسود تنبعث منه رائحة العرق، وممتلئ بالشعر، عليه بقع من الوسخ. ربطه في الخلف عند رقبتي، فشرع في قص شعري بمقص يحركه بأصابعه في خفة، بينما أنا خائف أتابع حركاته،

وبين الفينة والأخرى يتوقف عن الحلاقة، ليعود لحكاياته عن الحرب الفظيعة، التي لا تنتهي أبدا، وتجعل الزبائن يترددون بكثرة على المحل الصغير.

.6

عندما ولدت أختي الثانية شرع والدي في معاقرة الخمر. لم تفهم والدتي سبب هذا التغير الذي طرأ على زوجها. سمعتها تشتكي لجدتي ذات يوم، وتعبر لها عن مخاوفها مما تخبئها لها الأيام.

لم تعمر أختي سوى بضعة أشهر، فماتت. حزنت عليها كثيرا، وتألمت لرحيلها المبكر. رغم موت أختي استمر والدي في شرب الخمر.

ذات يوم عاد والدي إلى البيت في ساعة متأخرة. كنت نائما، وإذا بي أسمع وقع طرقات متواصلة على الباب الحديدي لبيتنا. نهضت من فراشي، وهرعت عند أمي. لم أعثر عليها في غرفتها، خرجت إلى صحن الدار، فوجدتها تمسك والدي الساقط على الأرض، محاولة حمله على المشي. كان سكران إلى حد لم يمكنه من السير على رجليه، يبدو أن رفاقه الصيادين حملوه من البحر، وتركوه أمام البيت، وانصرفوا.

كانت تنبعث منه رائحة الخمرة والقيء. رائحة حادة مقززة، احتملتها والدتي بصعوبة. وبينما كانت تسعى جاهدة لحمله إلى الغرفة، بقيت أنا جاثما في مكاني، لا أتحرك، يساورني إحساس بالخوف والغضب في آن واحد، وفجأة حدث ما لم يكن منتظرا. راح والدي يردد كلاما بذيئا، متوعدا أناسا لا أعرفهم،

كان يذكر أسماءهم، لكنني لم أتعرف على أي منهم. طلبت مني أمي أن أذهب إلى غرفتي، وأبقى فيها مع أختي. عصيت أمرها، وبدل ذلك مسكت مكنسة كانت أمامي، فشرعت في ضرب والدي بكل ما أتيت من قوة. صاحت أمي، وأمرتني بترك المكنسة، إلا أنني أحسست بنوع من النشوة وأنا أنهال على والدي السكران بضربات جعلته يبقى طريح الأرض، لا يقوى على النهوض، فأخذ يصيح متوعدا بقتلي، ناعتا إياي بالابن العاق الذي لم يتلق أي تربية.

تركت أمي والدي، ومسكتني من ذراعي. أخذت المكنسة مني، ضربتني على وجهي، فصاحت قائلة :

ـــ روح أرثخمتيك (أدخل إلى غرفتك.)

لم أدخل إلى غرفتي مثلما أرادت أمي. فتحت الباب الحديدي، وهرعت إلى الخارج، فررت من البيت. كنت أبكي وأجري صوب الشاطئ. أجري وسط ذهول من كان في الخارج من أهل الحي.

كنا في عز الصيف. القمر توسط السماء، فأضاء الشاطئ. كنت أرتدي تبانا من النموس، وقميصا أبيض، قدماي حافيتين. كنت ألهث من شدة الجري. جلست على الرمل، ولم أتوقف عن البكاء، وفي داخلي كان الغضب يزداد شدة وتأججا. لما توقفت عن البكاء، غفوت، فأخذني النوم، قاومته برهة، ثم أحسست شيئا ناعما يلامس يدي اليمنى، شيئا يشبه ملامسة إنسان طيب. ولما نظرت يميني، وجدت قطا صغيرا يداعب رجلي بلسانه. مسكته بيدي، وحملته إلى صدري. كان لونه أبيض مبرقشًا تتخلله نقاط سوداء في بعض الأماكن، صغيرا لا يتعدى عمره الستة أشهر. مررت يدي على ظهره،

فرحت أمسد شعره، فأخذ يتلوى، ثم تكور على نفسه، كأنه أحس بالدفء الإنساني الذي كنت أمنحه إياه، ذلك الدفء الذي حرمت منه أنا الطفل الصغير الذي فر من البيت. وها أنا الآن أنام على الشاطئ، تحت القمر والسماء الصافية.

استلقيت على الرمل، وقد وضعت القط إلى جانبي، فنمت إلى الفجر. أيقظتني نسمات البحر الصباحية الباردة رغم الصيف، فوجدت القط نائما أمامي لم يبرح مكانه. كنت جائعا، وفكرت مباشرة في ما حدث لي بالأمس. قلت حتما ستكون أمي قد جنت من أجلي، فتساءلت ماذا سيكون رد فعل والدي بعد أن يصحو من السكر. ترددت بين العودة إلى البيت لإزالة مخاوف والدتي، وبين الاستمرار في الهرب تعبيرا عن تذمري من تصرفات والدي العنيفة تجاهي، وكتعبير عن رفضي للعادة الجديدة التي اكتسبها، والتي زادته عنفا على عنف، كنت ووالدتي من ضحاياه، قررت أن لا أعود إلى البيت. نهضت من على الرمل، حملت القط بين يدي، وسرت بعيدا عن الحي. عثرت في طريقي على نعلين ممزقين، فلبستهما. كانت رجلاي تسبحان فيهما، لكنني احتفظت بهما، علني أعثر على أصغر منهما. مشيت على طول الشاطئ، إلى غاية حي «غران روشي»، فصعدت إلى الطريق الكبيرة، لحسن حظي لم يكن أطفال هذا الحي الفوضوي قد استيقظوا بعدُ، فهم أطفال شديدو العنف، لا يطيقون الغريب أبدا، يستوقفونه إذا مر من حيهم، فيجردونه من أشيائه الثمينة، وحتى من لباسه، إن لم يعثروا لديه عن شيء يستحق السطو.

راودني إحساس بالجوع وأنا أمشي على الطريق الكبيرة، متوجها إلى بلدة غيوت فيل. تذكرت أمي فجأة، وقلت في

نفسي «حتما تكون تبكي». لكن ذلك لم يدفعني للعودة إلى البيت. كنت أرغب في معاقبة والدي جراء ما قام به بالأمس.

حينما وصلت إلى حي الهنود الحمر، على مشارف غيوت فيل، كانت الشمس قد بزغت أخيرا. نهشني الجوع، ولم أتمكن من السير أكثر. أحسست بدوار في رأسي، وكانت الأوجاع تنهش أحشائي. تذكرت "شعبة الزوالية"، فقلت سأذهب إلى هناك. حتما سأجد ما آكله. مشيت بمحاذاة حقول العنب، شربت الماء من نبع على الطريق، ثم قطعت غابة كثيفة، حتى وصلت إلى "الشعبة" بعد نصف ساعة. وجدت أناسا كثيرين سبقوني إلى المكان. أغلبهم عجائز، يحملن على رؤوسهن قففا من الديس مملؤة بالفواكه. الأطفال كذلك كانوا يجوبون المكان. وكانت شاحنات كبيرة تلقي بحمولتها هنا وهناك. كان التفاح يملأ المكان، ورائحة العفونة تنبعث منه. والناس يتبعون الشاحنات للظفر بحبات تفاح غير متعفنة، كانوا يتسابقون كأنهم مصابون بالحمى. بين الفينة والأخرى كانت تنشب خلافات بين عجوزين حول تفاحة كبيرة، فيشرعن في تبادل السب والشتم، وأحيانا أخرى يتشاجرن بالأيدي، ويتمرغن في وحل التفاح المتعفن الملقى جانبا، دون أن يعطي أحدا لنفسه عناء إيقافهن عن الشجار.

نسيت الجوع وأنا أكتشف هذا المكان العجيب لأول مرة، بعد أن سمعت عنه الكثير من قبل أطفال الحي الذين يكبرونني سنا والذين غامروا صوبه بحثا عن شيء يؤكل. وقد تعود الناس على المجيء إلى "شعبة الزوالية" منذ سنوات طويلة، بعد أن انتشر الجوع بسبب الحرب الكبرى التي جعلت البلاد تغرق في فوضى عارمة. وظلوا يأتون إليها حتى بعد انتهاء

حرب السبع سنوات، بالرغم من علم ممثلي السلطة المركزية بما يجري من مظاهر التشرد والجري وراء لقمة العيش. وكان الناس يقتاتون من" شعبة الزوالية" رغم ما شاع في الخطابات من حديث عن العدالة والمساواة التي رافقت زيارة ذلك الثوري الأرجنتيني الذي حارب الأغنياء في كوبا للبلاد ، ورغم حملات القضاء على مظاهر الفقر التي كانت تذكر السيد الرئيس بالعهد الاستعماري، فقرر منع أطفال الفقراء من العمل كماسحي الأحذية على طول شوارع المدن.

بقيت جاثما في مكاني إذن أتأمل ذلك الرهط البشري، إلى أن قررت البحث عن حبة تفاح تؤكل. اقتربت من شاحنة راح سائقها يستعد لتفريغ حمولتها وسط صيحاته طالبا من الناس أن يبتعدوا عن الشاحنة. تركت الشاحنة تبتعد عن مكان التفريغ، وشرعت في البحث وسط عشرات الأيدي، وكل يد كانت تحاول استباق اليد الأخرى في حركات سريعة وآلية. عثرت على حبة تفاح كبيرة، كانت بين يدي ، وفجأة انتزعت مني بقوة جعلتني أصاب بالفزع. أخذها مني طفل ذو وجه دائري عليه ندب كثيرة يكبرني كان أمامي، فأعطاها لفتاة كانت واقفة خلفنا ، وفي يدها قفة كبيرة. حاولت استرجاع ما أخذ مني، إلا أن الفتاة دفعتني إلى الخلف، فأسقطتني فوق كومة من التفاح المتعفن. نهضت من سقطتي، ورحت أبحث ثانية عن تفاحة أخرى، عثرت عليها بعد جهد. حاول الطفل ذو الوجه الدائري أخذها مني ثانية، فدفعته بدوري إلى الخلف دون أن يسقط مثلما سقطت أنا ، وبدل أن يتشاجر معي، راح يصيح لأخيه أن يأتي لنجدته. جاء الأخ يجري، وكان يكبرني سنا ، فقال له :

ـــ واش بك.

فأجاب الأخ :

ـــ هذا الطفل ضربني.

اقترب مني هائجا، مسكني من رقبتي، شدني بعنف، أوجعني، فضربني بقدمه عند أسفل بطني، انسحبت إلى الخلف، أحسست بالإهانة، فاندفعت نحوه، مسكته من خصره، فأسقطته أرضا، تمرغنا على التراب الأحمر، عضني في أذني، فأطلقت صيحة متألمة، يبدو أن صياحي أثار انتباه الغارقين في حمى البحث عن التفاح. استطاع شاب يكبرنا سنا أن يفصلنا عن بعضنا، طلب منا أن نكف عن العراك، حدجني بنظرة غاضبة، وتوعدني، ثم انصرف بعيدا.

عثرت أخيرا على حبة تفاح أخرى، فرحت كثيرا، وأخذت أمسح ما علق بها من أوساخ وعفن الحبات الأخرى وأنا جالس تحت ظل شجرة زيتون وارفة، التهمتها بسرعة، ووجدتها لذيذة. كف الجوع عن نهشي، فتذكرت أمي. رغبت في العودة إلى البيت إلا أن الخوف من رد فعل والدي جعلني أعدل عن ذلك، قلت سيعاقبني بشدة، ربما سيربطني إلى جذع شجرة خلف الدار، فيتركني وحيدا عقابا لي، بعد أن يمطرني بوابل من الضرب في مؤخرتي. لا لن أعود، سأبقى هائما أجوب الشوارع، أبحث عن أكلي في "شعبة الزوالية"، بعيدا عن صياح والدي وضرباته. لكن أمي، تقت لها، أمي ليست مثل والدي، أمي تحن علي، لم يسبق لها أن ضربتني أبدا.

في اليوم الثالث من فراري عثر علي أحد جيراننا على الشاطئ. وجدني نائما بين صخرتين. كان على علم بفراري،

وفيما بعد علمت أن سان كلو بكاملها كانت على علم بما جرى في بيتنا في تلك الليلة التي ضربت فيها والدي. بحثوا عني في كل مكان، لكن دون جدوى.

لما عدت إلى البيت. ضمتني أمي إلى صدرها، وراحت تبكي من شدة الفرحة. سألتها عن والدي، فأخبرتني بأنه نائم. لم ينم ليلتين كاملتين. كان يبحث عني في كل مكان، ولما فقد الأمل في العثور علي أخبر أمي بأن لا تقلق، قائلا لها : "سيعود لما يمل من الهيام". وبينما أمي تمسح دموعها الجارية على وجهها، قلت لها :

ـــ هل سيضربني والدي ؟

قالت :

ـــ لا أظن.

ولما استفاق من نومه، لم يضربني كعادته، بل ضمني إلى صدره، وراح يبكي بدوره.

7،

هناك وقائع لا ندرك أهميتها ونحن صغار، رغم أنها حدثت أمام أعيننا، ونصبح في ما بعد شهودا عليها، ومع قليل من الفضول، نستعيدها لاحقا ونعرف ما كانت تختزنه من أسرار بالنسبة للأطفال الذين كُنا هم.

من هذه الوقائع ما كان يحدث من صراع يومي متأجج في حي سان كلو بين محند المدعو بود أبوت الذي يشتغل إسكافيا في زنقة فرعية مظلمة، يعبرها من يقصد الشاطئ،

وبلقاسم المدعو كاستيلو صاحب مقهى الثورة الواقع قرب الميناء بمحاذاة مقهى ملاكوف. تخاصم الرجلان منذ سنوات طويلة. الإسكافي لا يدخل مقهى كاستيلو، وقد أقسم على ذلك، وصاحب مقهى الثورة لا يرقع أحذيته عند بود أبوت، مفضلا التنقل إلى بلدة غيوت فيل، على أن يدخل دكان بود أبوت. يكرهان بعضهما البعض كرها شديدا، ولا أحد منهما يطيق سماع اسم الأخر. حاول كثير من الناس دفعهما إلى المصالحة، لكن بدون جدوى، إذ كان يبدو أن العداوة بينهما تجذرت، ولا مناص منها، ففي كثير من الأحيان يمنحان حي سان كلو الرتيب لحظات من الصخب تأتي على الضجر المخيم، حينما يلتقيان عند مدخل الحي صدفة، فيتبادلان نظرات التحدي في صمت يخفي حقدا دفينا، فيتسمران في مكانيهما، كاستيلو بقامته الطويلة وحدقتاه الشاحبتان وشعره الذي يميل إلى البياض وكرشه الدائرية، والندبة العريضة التي على رقبته، وبود أبوت بجسمه النحيف ووجهه الذي غزته التجاعيد بشكل مخيف كأنه بلغ أعتاب قرن من العمر. لقد جعل منه سوء الطالع إنسانا حزينا. وكان يبدو من ملامح وجهه أن الدهر مصر على ربطه بمربض التعاسة.

في تلك المرات القليلة التي يلتقي فيها الرجلان عند مدخل الحي يجثمان في مكانيهما بوقار للحظات طويلة، كأن أحدهما ينتظر حركة من الآخر، لكي ينقض عليه، ويلحق به الأذى، لكن لا أحد منهما تجرأ على ضرب الآخر، فيتوقف المشهد عند ذلك الحد الساخر، مما يثير ضحك أهل الحي، وهم يتابعون باهتمام ذلك الموقف الذي تعودوا عليه منذ سنوات طويلة، طويلة، فيروحون ينتظرون اليوم الذي تنفجر فيه هذه الحرب

الخفية بين الاخوة الأعداء، دون أن يتجرءوا على مناصرة طرف ضد آخر.

والغريب في أمر هذين الرجلين أنهما ينحدران من قرية واحدة. ولدا في القصبة عند مطلع قرن الحروب الكبرى. أصلهما يعود إلى قبائل بربرية زحفت من أعالي جبال الصومام قادمة إلى المدينة، بعد هزيمة المقراني عند نهاية القرن التاسع عشر. ويحكى أن ماريشال جيش الغزاة، جاء بجديهما مكبلين عقب الهزيمة، وقد قرر نفيهما إلى كيان، إلا أن تأخر السفينة المبحرة إلى ميناء سان لويس بالسينغال، ومنه إلى جزيرة المنفيين، جعل الماريشال يعدل عن قراره، فوضعهما في سجن بربروس مدى الحياة.

ترعرع الرجلان سويا في أحياء الحي العتيق. لم تطأ أقدامهما المدرسة، فظلا يتسكعان في أزقة القصبة الضيقة، يتعاركان مع أبناء المعمرين الإسبان حينما ينزلان إلى البحر عبر باب الواد، خلال أيام الصيف الثقيلة بفعل الرطوبة، وكانا يغامران إلى غاية ساحة الحكومة وسط الأوروبيين، ويقتربان من الميناء لمشاهدة السفن وهي راسية تفرغ حمولتها، بينما الرجال ينقلون السلع على أكتافهم من بطون السفن إلى المخازن المجاورة، يتحركون بخطى وئيدة، والعرق يتصبب من جباههم لما يشتد الحر، ويرتجفون من البرد في الشتاء، كانا يستغرقان وقتا طويلا وهما واقفان عند شارع الجمهورية الكبير من حيث يطلان على الميناء. يمعنان النظر في بؤس الرجال، فيفكران في ما ينتظرهما لاحقا من مشقة العيش، ومتاعب الحياة. وحينما يعودان إلى الحي العتيق يراودهما مجددا إحساس بالطمأنينة وسط الأهل، وروائح الحي الشعبي المنبعثة من المطاعم، والمخابز

والمقاهي حيث كثر الحديث تلك الأيام عن ذلك الزعيم الوطني الذي تجرأ على المطالبة بالاستقلال والعدالة بين الناس، مساويا بين المعمرين والسكان الأصليين، الأمر الذي كان ثوريا آنذاك، وقد بقي ذلك اليوم القائظ 2 أوت من عام 1936 الذي حل فيه في البلدة لأول مرة، يوما مشهودا، راسخا في الذاكرة لا ينمحي. كلام الزعيم تداوله من حضر تجمعه في الملعب البلدي حيث انتظره المريدون لساعات طويلة، متسلحين بالصبر، رغم حرارة الشمس اللافحة، ونظرات الكولون العدائية. كلام الزعيم ذي اللحية الطويلة الذي أقسم أن يتركها مسترسلة إلى غاية استقلال البلاد، ظلوا يرددونه بلذة على مسامع من يريد، قائلين في زهو، والسعادة تغمرهم "انحنى على الأرض، أخذ حفنة من التراب، وقال : "هذه الأرض ليست للبيع".

أجبرهما العوز على كسب العيش مبكرا، فاحترفا كل الأشغال القاسية الممنوحة للأطفال الضائعين في الحي العتيق، باعا السجائر أمام أبواب الحانات في باب عزون لعاهرات عربيات احترفن الدعارة. حملا على أكتافهما النحيفة حقائب الأوروبيين الذين زاروا الحي. وفي أغلب الأوقات اشتغلا كماسحي أحذية بشارع روندون. كانا دائما تحت رحمة المشردين المتسكعين اللوطيين، وأحيانا كانا ينزلان إلى غاية الأحياء الأوروبية ويعرضان للبيع ما أمكن العثور عليه في تلك الأوقات القاسية.

كانت الحياة في أزقة الحي العتيق في زمن ما بعد الحرب الكبرى، قاسية. حياة لم تكن لتؤدي سوى إلى الانخراط في عصابات الأطفال المشردين، عصابات الأولاد الأشرار التي كان يستغلها رجال عديمي الذمة لأغراض دنيئة قذرة يقبل بها

الأطفال من أجل حفنة من الفرنكات، أو لقمة خبز، فيتحولون إلى متسولين تارة، أو بائعي أوراق اليناصيب تارة أخرى، وكانت الشرطة الاستعمارية على دراية بأفراد تلك العصابات، لكنها تركتهم لحالهم، على أن تستعملهم، بعد أن وافق زعيمها موح الطاهر على تحويل أطفاله إلى أعين للشرطة، يراقبون كل ما يجري في الحي.

تعرف الطفلان على القذارة والقسوة في سن مبكرة. ولما بلغا سن الخامسة عشرة، أصبحا رجلين شديدي البأس. بنيتهما قوية، وكانت ملامح وجهيهما قاسية، نظراتهما ثاقبة، وعلى صدريهما وشم كبير لامرأة ذات شعر مسترسل، ووشم آخر في اليد اليسرى : الشدة في اللّه.

قادتهما حياة الشواع إلى شؤون البغاء، فأصبحا قوادين ذائعي الصيت، صاحبي طبع قاس، لا يرحمان من يريد إيذاءهما. ومع مرور الزمن، أصبحا محل متابعات رجال الشرطة، فذاع صيتهما كثنائي شديد البأس. وذات مرة لم يتراجعا عن إطلاق النار على مالطي تعدى على عاهرة فرت من باريس بعد سقوط حكومة فيشي، وقد تنبأت بما سوف يجري للنساء الخائنات اللاوتي ارتمين بين أحضان الجنود النازيين. وبعد أن أخبرتهما بما تعرضت له من اعتداء، دفعت لهما مبلغا من المال لتأديب المالطي، ومنحت لهما سلاحا للدفاع عن أنفسهما في حالة الخطر.

نزل بود أبوت وكاستيلو في صباح اليوم الموالي من الحي العتيق، وقصدا شارع مارينغو حيث يعمل المالطي في ورشة للأحذية. تتبعا خطواته ثلاثة أيام كاملة، وفي اليوم الرابع أدركا أنه يقصد مبغى عربيا بالحي العتيق، وأخبرهما قواد المبغى

مومو لوبلان أنه يأتي المبغى كل يوم سبت. وفي السبت الموالي انتظراه بضعة خطوات من المبغى، فانهالا عليه ضربا بعصي من شجر الزيتون. جرح المالطي، ونجا من الموت بأعجوبة. وفي مركز الشرطة تعرف على معتديه، فتم إيقاف بلقاسم كاستيلو، بينما تمكن محند بود أبوت من الفرار.

صدر الحكم على بلقاسم كاستيلو بسنتين سجنا، في مارس 1953. وراح محند بود أبوت الذي بقي وحيدا، يفكر في وضعيته. لم يكن قاسيا مثل كاستيلو الذي كان يمنحه الشجاعة ويحفزه على الفعل، أما الآن وقد بقي وحيدا، فقد قرر التراجع عن حياة القوادين، إلى متى سيبقى خاضعا للسوء؟ لقد بلغ سن العشرين، وعليه أن يتعقل قليلا، حياة الهوزية لا تنفع، إنها مجرد نزوة شباب عابرة، لذلك قرر أن يكف عن التردد على عالم القوادين وحياة الليل في كباريهات الحي العتيق، فأصبح عاملا في الميناء، بينما وجد كاستيلو نفسه في سجن بربروس محشورا رفقة ثلاثين سجينا في زنزانة صغيرة، تنبعث منها رائحة الرطوبة العالقة على جدرانها المتسخة، وكان في الزنزانة، جنبا إلى جنب، سجناء الحق العام، القوادون مثله، والنشالون الذين احترفوا السرقة في شوارع العاصمة، بالإضافة إلى المساجين السياسيين. كانوا ينامون جنبا إلى جنب، وأثناء الليل عندما تنطفئ الأضواء، قبل النوم الذي يأتي متأخرا، تتحول الزنزانة إلى خلية للوطنية والنضال، فيشرع المساجين السياسيون في الحديث عن الحرب ضد هؤلاء الفرنسيين والأسبان والمالطيين من الأقدام السوداء. أخبروا كاستيلو أنه ضحية الكولون، جعلوه يدرك أنه بقي أميا لم تطأ أقدامه المدرسة بسببهم، واحترف القوادة، وبسببهم كذلك لم يتعلم

أشياء نافعة. فماذا يعني أن يكون المرء هوزيا، يدافع عن عاهرة خائنة ؟ لا شيء. كان كاستيلو يطأطئ رأسه، وهو يستمع لمثل هذه الحقائق، فيساوره إحساس بالذنب، فيستغل المساجين السياسيون الفرصة، وقد تحينوها، فيخبره أحدهم "عليك أن تلتحق بنا ليتغير كل شيء. الثورة على كل شيء".

وعرف بود أبوت المصير نفسه. تعرف في الميناء على أحد أتباع سيد الحاج، تمكن من حمله على الانخراط في الحزب. وبعد بضعة أيام فقط، أصبح يردد على مسمع من يريد الإصغاء إليه "أنا مستعد للموت من أجل سيد الحاج". الزعيم لما بلغه ولاء محند بود أبوت، طلب مقابلته. كان يمر بفترة عصيبة، إذ تمردت عليه مجموعة من المناضلين المثقفين، قرروا وضع حد لما أسموه عبودية الشخصية، فحرروا بيانا نددوا فيه بتصرفاته وطغيانه، وأشاعوا أن البلاد يهددها الكولون وعبادة الشخصية على حد سواء. لم يجد الزعيم أمامه من وسيلة للخروج من هذا المأزق سوى إلصاق تهمة البربرية لهؤلاء المناضلين المتشبعين بالأفكار التنويرية والديمقراطية التي درسوها بثانوية بن عكنون التي كان ينظر إليها الزعيم بعين الريبة والحذر. كان يفضل الفعل على التفكير، لذلك استدعى بود أبوت، وأخبره بقرار تعيينه في منصب مسؤول فرع الحي العتيق.

لم يصدق بود أبوت قرار الزعيم. أصبح مسؤولا كبيرا رغم مستواه التعليمي المنحط. اختاره سيد الحاج نظرا لولائه الأعمى، فهو يختلف عن هؤلاء المتعلمين الذين أتعبوه كثيرا بأفكارهم التنويرية التي زعزعت عرشه. إنه الآن أمام مريد منحني الرأس، يرتعد من شدة تبجيل شخصه الموقر، مريد خاضع له تمام الخضوع، ينحني أمامه، ويقبل يده، ومستعد للموت من

أجله. ظل بود أبوت مواليا للزعيم، منصاعا لأوامره، خاضعا، راضيا بذلك، حتى عندما نشبت خلافات كبرى داخل الحزب. كان الزعيم يعتمد عليه دائما لجعل الكفة تميل لصالحه. وكان بود أبوت يقدم الخدمات تلو الأخرى، فتحول الحزب إلى مقام، علقت رائحة البخور والجاوي بجدرانه. أعضاؤه من سكان المدن والمنحدرين من الطبقات الميسورة سرعان ما ذاقوا ذرعا من حالة الانسداد التي وصل إليها الحزب، وذات يوم من شهر أفريل 1953 قرروا التمرد على الزعيم، ووضع حد لتسلطه، فانفجر الحزب إلى موالين للسيد الحاج، ومعارضين له، وسرعان ما ظهر فريق ثالث في مارس 1954، ذاق ذرعا من الطرفين، فأعلن الحرب في الجبال، ثم سرعان ما انتقلت الحرب إلى الحي العتيق، حينما قرر ذلك القائد السياسي الحذق الذي تمكن من لم شمل القادة في اجتماع تاريخي كبير في قرية منعزلة على جبال الصومام، أن يجعل من الحرب ثورة شاملة.

لم يتردد كاستيلو بعدما غادر السجن في ربيع سنة 1955. كان ينوي اتخاذ قرار حاسم. التقى برفاقه القدامى في عصابات الأولاد الأشرار بمقهى شعبي، فأخبروه أن أمورا كثيرة تغيرت في الحي، كما أبلغوه أن التنظيم الثوري اغتال موح الطاهر رئيس كل العصابات، ولم يعد من الممكن الاستمرار في القوادة. وأدرك أن أحوالهم ساءت للغاية، فالعديد منهم التحق بالتنظيم، بعضهم عن قناعة، وآخرون تحت وطأة التهديد. وكثيرون توقفوا عن العمل. ولما سأل عن بود أبوت أخبروه أنه سار مع الزعيم، سيد الحاج المبجل، وأنه نجا من محاولة اغتيال دبرها التنظيم ضده. لماذا ؟ سأل كاستيلو مستفسرا. لأن الزعيم أراد إيقاف الحرب، هكذا أخبروه. وأنت ماذا ستفعل يا كاستيلو ؟ لم يخبرهم بقراره. غادرهم، وصعد إلى

الحي العتيق، مسرورا بمغادرة السجن، عازما على الاتصال بالتنظيم الثوري.

سرى خبر خروج كاستيلو من السجن في كل مكان. وصل آذان أسياد الحي الجدد. هناك رجل قاس، مستعد لفعل أي شيء يطلبه منه التنظيم، يريد الانضمام لصفوفنا. هكذا أخبروا القائد الذي تنحنح في مكانه، فراح يفرك شنباته الصغيرة. راوده شك في أن الرجل يريد اختراق صفوف التنظيم لحساب الشرطة الاستعمارية، إذ يعرفه جيدا، فهو قواد حقيقي، قواد ذائع الصيت. من لا يعرف كاستيلو، قال في قرارة نفسه. حتما يتحرك لصالح الشرطة، سنرى ذلك، قال القائد لمن أبلغه بما جرى.

التقى كاستيلو بالقائد الثوري بسوق شارع فيردان، ليس بعيدًا عن سجن بربروس في أعالي الحي العتيق، ذات صباح من نوفمبر 1955. كانت السماء تمطر منذ طلوع النهار. أهل الحي بدءوا يتأقلمون مع يوميات الحرب، ويترقبون الغد. ارتدى كاستيلو بدلته السوداء، وعلى رأسه وضع قبعة باسكية. أما القائد فكان يرتدي بدلة من نوع شنغهاي، وعليها معطف قطني. كان قصير القامة، نمت على وجهه النحيف شنبات رقيقة، وكان يحمل تحت سترته مسدسا من طراز خمس عشرة طلقة. جلس الرجلان إلى طاولة مقهى عتيق، يحتسيان القهوة، ويتبادلان نظرات الريبة، وبين الفينة والأخرى يلقيان نظرات الاحتراس يمينا وشمالا.

اقتنع القائد بنية المتطوع الجديد بسرعة جعلته يدرك أنه أمام محارب شجاع. أدرك أن في داخله حقدا تجاه الكولون، وشحنة قابلة للانفجار. يبدو أن المساجين السياسيين الذين

كانوا معه في السجن، عرفوا كيف يجعلون منه رجلا ناقما على الأوضاع السائدة. هكذا قال القائد في قرارة نفسه، ثم أضاف "سنأخذك معنا". انشرحت سرائر بلقاسم كاستيلو، وساوره إحساس بالغبطة. لكن بقي أمر آخر، قال القائد وهو يجترع آخر جرعة من كأس الشاي. ما هو ؟ قال بلقاسم. "أريدك أن تعطينا الدليل القاطع عن نيتك". فأجاب بلقاسم أنه مستعد. فقال القائد: "غدا ستقتل شرطيا بشارع روندون". لم يتردد بلقاسم، فأبدى موافقته. كان القائد يريد معرفة نوايا الرجل، فأخبره: "سنلتقي غدا بمقهى سنيما ريكس.

في اليوم الموالي نزل كاستيلو إلى شارع روندون، بعد أن غير ملابسه، وارتدى بدلته الشنغهاي، ونعلين خفيفين. سار كعادته وسط الناس، بين أهل الحي العتيق الذين تبدو علامات الشقاء على وجوههم، يلقي التحيات يمينا وشمالا، وبين الحين والآخر كان يصادف أوروبيا يسير خائفا، فيرمقه بنظرة قاسية، تجعل الأوروبي يحس بمزيد من الخوف والذعر، فيسرع خطاه دون أن يلتفت وراءه.

لما بلغ المقهى المحاذي لسينما ريكس، جلس إلى طاولة منزوية، فراح ينتظر. كانت تصله أصوات باعة الخضر المنتشرين على طول شارع روندون. وأمامه سينما ريكس تعرض فيلم لفيرنونديل، كشر في وجهه، لكنه سرعان ما قال في قرارة نفسه "معذرة يافيرنونديل، أنت إنسان لطيف، وأحبك كثيرا". وبعد بضعة لحظات، وعلى حين غرة، جلس أمامه شاب وسيم يصغره سنا، قال له :

ـــ هناك شرطي يجلس كل يوم عند منتصف النهار بالمقهى المحاذي لجامع اليهود، النظام كلفك بقتله.

قال كاستيلو بوجه مقطب :

ـــ أقتله بماذا ؟

ـــ ستجد في انتظارك امرأة ترتدي لحافا، بالقرب من الأقواس المقابلة للمقهى، تعطيك المسدس، تتبعك، وبعد أن تطلق النار تعيده لها.

ـــ وكيف سأتعرف عليها ؟

ـــ هي التي ستتعرف عليك.

غادر كاستيلو المقهى، وتوجه إلى جامع اليهود. لما وصل إلى مشارفه، اقتربت منه المرأة. أشارت إلى الشرطي، فأخذت من قفتها مسدسا، أعطته للرجل، وتبعته كما هو متفق عليه.

أسرع الخطوة نحو الشرطي. كان جالسا إلى طاولة خارجية، وحيدا، يقرأ جريدة المُعمر. لما وصل إليه، أشهر المسدس، أطلق النار مرة، مرتين ، لم تخرج أي رصاصة، ارتعدت يده، حاول الشرطي الدفاع عن نفسه، أطلق كاستيلو النار مرة أخرى، لكن لا شيء انطلق من الفوهة، تمكن الشرطي من وضع يده على مسدسه بينما كاستيلو يحاول إطلاق النار للمرة الخامسة، تأكد أن المسدس كان فارغا، ألقاه أرضا، فوجه لكمة قوية مشحونة بالغضب إلى وجه الشرطي الذي سقط أرضا والدم ينزف جاريا من أنفه وفمه، فانطلق مسرعا إلى الحي العتيق، واختفى بين الأزقة الضيقة. كاد ينفجر من الغضب. ولما التقى بالقائد بعد ساعتين من العملية، غضب أكثر لما علم أنه أخضع للاختبار.

ـــ راودتني الشكوك بشأن نواياك، فظننت أنك متواطئ مع الشرطة.

هكذا قال له القائد الثوري بمجرد أن التقى به بعد أسبوع في حمام لالة تركية.

ظل كاستيلو صامتا، فأضاف القائد :

ـــ تأكدت الآن أنك لست من هؤلاء الواشين الذين يريدون اختراق صفوفنا. أنت مؤمن بالثورة فعلا، وهذا يسعدني كثيرا.

في تلك الليلة نام القائد الثوري نوما هادئا. أدرك أن انضمام كاستيلو إلى فريقه سيعطي الحرب في المدينة نفسا جديدا، ذلك أن كاستيلو يعرف الحي العتيق زنقة بزنقة، كما يعرف أعضاء العصابات الأخرى، والعملاء، ومهربي المخدرات، ولاعبي أوراق الشيك شيك، والقوادين، والعاهرات، وزعماء العصابات، موح الشونغاي، مومو العنابي، الاخوة حميشة، الإخوة لكحل، لو لوبيونكا، الاخوة غرازياني، بوعلام بوفيتا، يوسف فانتاي، وحتى الأوروبيين منهم أمثال فانسون لارسكاس، وجو مانيل، واليهوديين أفراييم أبراهام و روبير لوموكو، يعرفهم كلهم، وهم يعرفونه جيدا، ومن الآن فصاعدا لن يعمل بمفرده، كما تعود قبل دخوله السجن، بل سيخضع للتنظيم الثوري، سيطبق التعليمات التي يتلقاها من قادة لا يعرفهم، ولن يلتقي بهم أبدا، ذلك أن القائد الذي جنده، ليس سوى الحلقة الأخيرة من تنظيم ثوري لا يترك أي مجال للخطإ. وكان على كاستيلو قتل كل هؤلاء القوادين، فقد أعلنوا الحرب على النظام، بعد تواطئهم مع أكياري مسؤول الشرطة.

كانت التعليمات تصل كاستيلو تباعا، طلبوا منه أن يقتل موح باليسترو، ففعل. ثم شرطيا في باب الوادي، فلم يتردد. قتله أمام أنظار زوجته، وذات يوم وصله الأمر الذي لم

يكن يتصور أنه سيأتيه يوما. طلبوا منه أن يقتل محند بود أبوت. محند الذي ترعرع معه، محند قائد جماعة أتباع سيد الحاج. نزل عليه الخبر مثل الصاعقة. لم ينم الليل بطوله، وظل يفكر. اتصل بالقائد وأخبره باستحالة تنفيذ العملية. أسندوها لشخص آخر، قال للقائد الذي أخبره "هذه المهمة أسندت لعشرة رجال قبلك، لكن لا أحد نجح فيها. محند بود أبوت رجل حذق، يغير مكان نومه كل ليلة، أنت الوحيد القادر على تخليصنا منه، لقد قتل إلى حد الآن كثير من رجالنا، وأوشى بآخرين لرجال البوليس. إننا بين نارين. وستخمد الثورة لو استمر الحال هكذا".

مر أسبوع كامل قضاه كاستيلو في البحث عن ما يقنعه بقتل صديقه. وذات يوم وصله أن أتباع سيد الحاج قتلوا ثلاثة من رجال التنظيم بشارع لالير. نهض من مجلسه غاضبا، وضع مسدسه تحت معطفه، فخرج إلى الأزقة. راح يسير مندفعا إلى الأمام يسأل عن بود أبوت. ولما عثر عليه خارجا من حمام تركي عند اقتراب غروب الشمس، وسط ثلاثة من حراسه المقربين، أخرج مسدسه، وضع إصبعه على الزناد، ودون أن يتردد أطلق طلقة أولى لم تصب صديقه. ولما حاول إخراج الطلقة الثانية، كان حراس محند بود أبوت قد شرعوا في إطلاق النار من مسدساتهم، فاحتمى بالجدار المقابل، وكذلك فعل محند ورجاله، فبدأت عملية تبادل إطلاق النار وسط ذهول أهل الحي، من رجال ونساء راحوا يقفلون نوافذهم.

وبينما خرجت أولى الطلقات من مسدسه، قال بود أبوت :

ـــ لا تخطئ العدو يا كاستيلو.

ورد الفدائي :

ـــ ألست من قام بتصفية رجالنا.

ـــ لست أنا، بل رجال المفتش أوسمير.

ـــ كيف ذلك ؟

ـــ إنه يريد أن يوهم قادتكم بأننا من قتل رجالكم، حتى تنفجر الحرب بيننا. وتخمد الثورة.

ليس كاستيلو بالإنسان الذي يفكر، فالرجل العنيف مثله لا يستعمل عقله، لا يؤمن سوى بالطلقات النارية والضربات القوية التي يسددها في وجه أعدائه، لذلك رفض التوقف عن إطلاق النار، وقال :

ـــ أنا مجبر على قتلك.

ـــ سأدافع عن نفسي إذن.

ـــ عليك بذلك.

استمر تبادل إطلاق النار طيلة ساعة كاملة. قيل أن الشرطة الاستعمارية كانت على علم بما كان يجري، إلا أنها تركت الاخوة الأعداء يصفّون بعضهما. ولما اقترب الليل، نفذت ذخيرة كاستيلو، فاضطر للانسحاب تحت جنح الظلام، أطلق آخر رصاصة من مسدسه التي كان تركها في جيب سرواله على المصباح العمومي الذي كان ينير المكان، فانطلق هاربا وسط الأزقة المظلمة.

في اليوم الموالي اقتحم كاستيلو بيت بود أبوت. حطم الباب الخشبي، ودخل متبوعا باثنين من رجال التنظيم الثوري. ظنت أم محند بود أبوت أن المظليين هم من اقتحموا منزلها، فإذا

بها تجد نفسها أمام صديق ابنها، وفي يده سلاح مشهر في وجهها. طلب منها أن تخبره عن مكان ابنها، لكن العجوز المسكينة ظلت جاثمة في مكانها، كانت ترتعد، لم تدرك بعد ما كان يجري أمامها. أعاد كاستيلو سؤاله صائحا، فقالت إن ابنها غير موجود. فسألها مجددا "أين يوجد ؟". لم تكن العجوز تملك سرا تخفيه، بينما كاستيلو مشهر سلاحه، مصر على معرفة مخبأ بود أبوت.

كانت العجوز تظن أن صديق ابنها تحول إلى العمالة مع مفتش الشرطة أكياري، خشيت على ابنها، وظلت تردد قائلة "لست أدري أين هو"، رددتها عدة مرات بالبربرية، بينما ظل كاستيلو مشهرا سلاحه في وجه امرأة عجوز تريد التستر على ابنها.

وفجأة برزت عيناه وتطاير منهما مزيد من الغضب، وقال :

ـــ أين هو ابنك ؟

ـــ لست أدري قلت لك، ردت العجوز. كانت تحدق في كاستيلو، الذي عرفته طفلا صغيرا، يلعب مع ابنها في صحن الدار، وهاهو الآن يحمل سلاحا مشهرا في وجهها، كم من مرة سقط في المكان الذي هو فيه الآن، فضمدت جراحه، وهاهو اليوم يهددها، يبحث عن ابنها ليقتله، ماذا جرى، لا تعلم العجوز شيئا مما يجري من حولها، بلقاسم كاستيلو أصبح يخاطبها مهددا إياها. يا للهول. العجوز لا تعرف أن ابنها أصبح من أتباع سيد الحاج، وبلقاسم كاستيلو فدائيا يدعى سي بلقاسم، والحرب قائمة بينهما. كل هذا لا تعرفه.

أدرك بود أبوت أن حياته أصبحت مهددة. مات كثير من رفاقه. قتلهم كاستيلو ورجاله، فقرر الابتعاد عن الحي العتيق. لجأ متخفيا عند أخته في بلدة نائية، فهاجر إلى مارسيليا، ثم اضطر للانسحاب إلى مدن الشمال الباردة. ويحكى أنه كف عن التشهير بانتمائه لأتباع سيد الحاج، تجنبا للموت، فقد وصلته أصداء عن الاغتيالات التي طالت رفاقه في باريس. طاردهم رجال التنظيم الثوري شر مطاردة، ذُبحوا، قُسموا أطرافا، ووضعُوا في أكياس من البلاستيك الأسود، وألقي بهم في نهر السين، وآخرون ممن نجوا من الموت فروا إلى مدن الشمال، غادروا باريس التي دخلوها عند مطلع القرن، واستقروا بعيدا عن رجال النظام، ومن بقي منهم، تظاهر بالولاء مرغما، وأضحى يدفع الاشتراكات للتنظيم الثوري.

بحث كاستيلو بدوره عن محند لفترة طويلة، إلى أن وصله أن صديقه هاجر بعيدا، فتنفس الصعداء. تفرغ لمهام أخرى بعد بداية معركة شتاء عام 1957 التي أجبرته على مغادرة الحي العتيق إلى الجبال، حينما أدرك قادة الحرب أن المعركة في المدينة أضحت خاسرة بعد انتشار زهاء خمسة آلاف جندي مظلي بقيادة ذلك الجنرال ماسو المتعطش لانتصار عسكري يستعيد به مجده الذي ضاع في ديان بيان فو. ولما انتهت الحرب عاد بود أبوت إلى حي سان كلو، فاشتغل إسكافيا. لقد عاد إلى الحي من الباب الصغرى. كان يعي أنه ينتمي إلى زمرة الخاسرين، والمنتصرون خرجوا مزهوين بانتصارهم، وظلوا أسرى العداوة، غير متسامحين، رافضين السمو بأنفسهم وبلوغ قمة انتصارهم، والعفو عن الذين دخلوا معهم في صراعات من أجل تزعم الحرب، من أجل سلم دائم ينعم به كل الأطراف.

لم تداو السنوات التي مرت، جراح الماضي، والعداوة الدفينة راحت تعمق الشرخ، وكان كاستيلو يستغل موقعه كمحارب منتصر للحط من قيمة بود أبوت. لفق له تهمة الخائن، وضغط على السلطات العليا في البلاد لكي لا تعترف بالماضي الوطني الذي يستحقه، وكانت البلاد في حمى تلفيق تهمة الخيانة لكل أتباع سيد الحاج، ووصل الأمر إلى عدم الاعتراف بسيد الحاج كزعيم وطني. لقد قُتل، قتله أبناؤه الذين خرجوا من معطفه، تنكروا له، وأداروا ظهورهم لكل القيم التي يمثلها، قتلوه كزعيم وراحوا يبحثون عن زعماء جدد. واستمرت نشوة القتل. القتل الرمزي هذه المرة. الإحساس باللذة، السادية التي تقصي، أقصى درجات اللاتسامح، موضة المجتمع، سلوك السلطة والناس. قتلوا سيد الحاج، وأخرجوا زعماء جدد. يا لسخرية التاريخ. قدر الزعيم المشؤوم. فوضى الغوغاء. قُتل الزعيم، تعرض للمحو من الذاكرة، ومحند بود أبوت أصبح إسكافيا، يطأطئ رأسه صباح مساء، راضيا بالواقع الجديد، واقع يتحكم فيه ثلاثة أشخاص هم سي بلقاسم كاستيلو صاحب مقهى الثورة، رجل مارس ومسعود غارديماو.

وكان كاستيلو يعلم الكثير عن ماضي الرجلين، ذلك الماضي غير المشرف، لكنه غض الطرف عما يعرفه، أراد أن يضمن لنفسه حياة هادئة، وامتيازات كثيرة مثل كل المحاربين، فباع نفسه للشيطان. كان يعرف أن رجل مارس قضى سنوات الحرب جنديا في الجيش الاستعماري يقتل المحاربين في الجبال، ومسعود غارديما وجندي غاز لقنه الكولونيل تعاليم الانقلابات العسكرية وسلوكيات التسلّط واحتقار الناس، لم يهتم بكل هذا، غض الطرف عن كل ما يتعلق بماضيهم، فبقي يضع

صوب عينيه عدوا واحدا هو بود أبوت. بود أبوت فقط، وفي كل مرة يمر بالقرب منه، يبصق على الأرض. وكان محند بود أبوت يتقطر ألما، ويغرس نفسه في الصمت.

الفصل الثالث

أوت 2004

لم أصبح كاتبا كما كنت أحلم. الزمن لم يكن زمن كتابة. ولم يكن حتى زمنا واقعيا. كان كابوسا. كابوسا مخيفا، مؤرقا.. متوحشا... متاهة كنت فيها ضائعا، وقد حوَم الغربان على المدينة، ينهشون لحم أهلها، وكان الموتى يسقطون كل يوم، بعضهم يموت في الصباح، وآخرون ليلا، فامتلأت المقابر، وظهر الدفن الجماعي. ومن كثرة ما انتشر الموت، قررت السلطات العليا في البلاد رمي الموتى في البحر، لتأكلها الحيتان، وكانت طريقة سريعة، لا تتطلب تنقل الناس للمقابر، حتى لا يعرضون أنفسهم لهجمات الغربان المباغتة.

بدل أن أصبح كاتبا إذًا، انخرطت في جماعة محاربة الغربان. عينت في مصلحة التدخل السريع، بعد انتقال جماعة سليمان عديم اللقب إلى الزمن المتوحش. اخترت الوقوف إلى جانب السلطة في حربها. وضعت مسدسا ثقيلا من عيار خمس عشرة طلقة تحت معطفي. وبطاقة محارب عليها صورتي، أصبحت تلازمني. كانت أول ملامح الشيب قد بدأت تغزو شعري، والتجاعيد كانت بارزة، ومن عيني انبعث حزن عميق،

كنت دائما أسعى لإخفائه مفضلا الظهور بقسمات وجه قاسية، لا تترك أي مجال لظهور شخصيتي الرقيقة. لقد قتلت ذلك الإنسان الرومانسي الذي كنته. بالأحرى كنت أسعى لقتله، فقد سبب لي كثيرا من المتاعب. الناس في هذه البلدة مثل الذئاب. صمت الإله في داخلهم. أصبحوا متوحشين، ينقضون على من يتظاهر بالطيبة.

بعد شهر تلقيت أول راتب، واكتشفت الحياة على حقيقتها، تعرفت على أناس غلاظ، علمتهم الحياة أن يكونوا قساة، ورغم كل هذا بقيت أقرأ الكتب، وأخصص جزءا من راتبي الشهري لشرائها. لم أكن أقرأ في أوقات الفراغ بمكتبي حتى لا يلاحظ ذلك زملائي، بل في البيت، ثم في نزل المحاربين الذي اختفيت فيه لما بدأت رسائل التهديد بالموت تصلني من قبل أتباع سليمان عديم اللقب.

مرت اليوم عشر سنوات على التحاقي بجماعة المحاربين. نسيت خلالها نازلي بشكل يكاد يكون مطلقا، لم ألتق بها يوما، ولم أسأل عنها. نسيتها، وطويت حكايتها. والحال أن الواقع الجديد الذي فرضته جماعة الغربان، جعلني أنغمس في الواقع انغماسا كليا. كان الموت يحصد أرواح رفاقي في كل مكان، وعلمت أن تلك الجماعة حكمت علي بالإعدام، فاضطررت لمغادرة بيت أهلي بحي سان كلو، وأصبحت أقيم في نزل بقلب العاصمة. كنا نتنقل للعمل في مركز كافينياك ترافقنا حراسة مقربة، مسدساتنا بين أيادينا والأصابع على الزناد تحسبا لأي هجوم قد يشنه الغربان.

رأيت ما لم أكن أتصوره أبدا طيلة هذه العشرة سنوات. رأيت الفاجعة بعينها، الفاجعة مجسدة أمام عيني كل يوم،

في الصباح والمساء، في حرارة الصيف وبرد الشتاء كانت جماعة سليمان رئيس عصابة الغربان تحصد الأرواح بشكل بدائي. رأيت رؤوسا مقطعة، وأطفالا غارقين في برك من الدم، وجثث النساء والشيوخ والعجائز مشوهة، رأيت أطفالا يبكون عائلاتهم التي أبيدت، ورجالا يصبحون مجانين بين عشية وضحاها وقد فقدوا زوجاتهم وأولادهم، رأيت الكون يتحول أمامي إلى مذبح، وكان الزمن يتقهقر إلى الوراء قرونا عديدة، وأدركت أن جماعة عديم اللقب فقدت صلتها بالإنسانية، وشيئا فشيئا رحت أفقد حساسيتي وأصبح مثل رفاقي إنسانا فظا، قاسيا. فُرض علي ذلك، وكان لزاما علي أن أسير وفق هذا التيار لأضمن وجودي، وأتمكن من البقاء. أتذكر الآن أنني تذكرت نازلي ذات يوم وقد مرت خمس سنوات على التحاقي بالمحاربين وقلت في قرارة نفسي "نازلي هي التي كانت السبب في أنني أصبحت عنيفا، حتما أكون قد شعرت بضرورة القضاء على ذلك الإنسان الحساس الذي كنته لكي أتمكن من العيش مثل كل الناس، وربما لم أخرج من عزلتي إلا بعد توصلي إلى هذا القرار الذي أثر في لا شعوريا".

يحس الإنسان أحيانا أنه يجب أن يصبح ذئبا حتى لا تفترسه نازلي أخرى، حتى لا يقع تحت رحمة سادية ثانية تمارس عليه بطريقة تجعله حبيس غرفته. هكذا فقدت حساسيتي تدريجيا، حتى ملامح وجهي تغيرت، تركت شنبي ينمو غليظا، ومن فرط تناولي البيرة زاد وزني، وأصبحت رجلا مخيفا إلى حد كبير، تعلمت كيف أظهر القسوة من عيني اللتين كانتا مصدر نظرتي الطفولية التي كانت تجعل نازلي تقول لي في المرات القليلة التي كنت ألاقيها "لك وجه ملائكي". اختفى ذلك

الوجه الملائكي، وترك المجال لوجه قاس سمح لي أن أعيش وسط الغربان في زمن نشروا فيه الموت والجنون، وكنت أردد عندما أتوحد في مكتبي، وقد أغمضت عيني "على الإنسان أن يقسو لكي يقاوم الجنون". لكن هذا لا يعني أنني بلغت درجة البربرية التي بلغها أفراد جماعة عديم اللقب، بالعكس فقد عرفت كيف أحتفظ بحد أدنى من الإنسانية في قلبي، ليس فقط لأنني بقيت أحتفظ بعلاقتي بالكتب، بل لأن جماعة عديم اللقب لم تمس لحسن حظي أي أحد من أفراد عائلتي، في حين أن محاربين مثلي وصلتهم أخبار مقتل أفراد عائلاتهم فأصبحوا كالمجانين وفقدوا الصلة كليا بذلك الحد الأدنى من الإنسانية.

اليوم استدعاني قائد المحاربين إلى مكتبه. أخبرني أن عشرات النساء اللواتي التحقن بالزمن المتوحش، غادرن المغارات رفقة أبنائهن، وعدن إلى أهلهن، ثم أردف :

ـــ ستذهب غدا إلى الهلالية رفقة رجال الاستعلامات للتحقيق معهن.

قلت.. نعم.

لم يكن بودي إكثار الحديث معه. أعطاني تذكرة الطائرة وغادرت مكتبه.

في المساء أحسست جسدي ثقيلا. قلت ربما بسبب ارتفاع درجة الرطوبة، أخذت حماما باردا قبل أن يقطعوا الماء، وتناولت غذائي في المطعم المحاذي للنزل. صاحب المطعم النحيف كعود ثقاب يعرفني منذ عشر سنوات. وكان يتجرأ على سؤالي في ما يريده، وضع صحن اللحم المشوي بالبطاطا المقلية على الطاولة، ثم جلس أمامي، وقال :

ـــ يقولون إن الكابوس انتهى.

نظرت إليه مبتسما، فأجبته :

ـــ نعم.

ارتسمت علامات الحيرة فجأة على وجهه الذي برزت عظامه، فقال :

ـــ وماذا سيكون مصير جماعة سليمان عديم اللقب ؟

ـــ ربما سيعودون إلى الحياة بيننا.

ـــ وهل يعاقبون على أفعالهم ؟

ـــ لست أدري.

ارتسم الغضب على محياه فجأة.

لمحت له أنني أريد تناول غدائي وحدي، فغادر المكان. والحق أنني لم أكن أرغب في الحديث معه بشأن مصير عديم اللقب وجماعته وقد انتهت الحرب وقرروا وضع السلاح. كنت مترددا بين العفو والعقاب، مع التمسك بفكرة عدم النسيان في كلتا الحالتين، فحتى حينما نعفو لا يجب أن ننسى. هذا هو الثابت الوحيد في تفكيري. أما أن يغادروا زمن الجنون وينخرطوا في الحياة بين ظهرانينا مجددا، فذلك ممكن.

غادرت مكتبي في ساعة متأخرة، فآويت إلى فراشي على الساعة التاسعة، بعد أن أكلت أكلا خفيفا، وبقيت أفكر في المهمة التي كلفني بها قائد المحاربين. استلقيت على سريري، فأخذني النوم بعد لحظات. نمت نوما هادئا إلى غاية الخامسة صباحا. لم أعد أرى الموت يلاحقني في نومي، في كوابيس مفزعة تجعلني أستيقظ خائفا مرتاعا، وقد رأيت رأسي تقطع وتفصل عن جسدي، وتلقى في المياه القذرة.

غادرت فراشي بسرعة ولبست ملابس جديدة. ارتديت بدلة بيار كردان لونها أسود بارد. غادرت غرفتي، وفي الخارج كانت السماء صافية، والنهار لم يطلع بعدُ، ونسمات الصباح كانت باردة. تناولت قهوة بالحليب في المقهى المقابل كعادتي. أكلت بسرعة، ولحسن حظي لم يكثر القهوجي الكلام معي. بدا متعبا، وكان يتنقل بين الزبائن القلائل بخطى متعبة، وفي صمت.

بلغت الخامسة والنصف لما رأيت السائق يدخل المقهى، وصل متأخرا بربع ساعة، شرب معي قهوة، وظل صامتا. وجهه القاسي كان يبدو متعبا. دفعت ثمن ما تناولناه، وغادرنا المقهى إلى المطار، وكنت أستمع إلى الأخبار في الراديو، ولاحظت أن الصحفية ذات الصوت الغليظ لم تتحدث عن أخبار مغادرة أفراد من جماعة سليمان عديم اللقب لذلك الزمن المتوحش. أعرف أن الصحفيين لا يتحصلون على الأخبار إلا بعد أن تحقق فيها الجهات الأمنية، غدا أو بعد غد سنتصل بهم، ونحن من سيخبرهم بما جرى، حتى وإن بلغهم شيء فهم مجبرون على التزام الصمت وانتظار تعليماتنا.

في المطار التقيت برجال الاستعلامات، وكانوا خمسة. كانوا يرتدون بدلات أنيقة، قاماتهم طويلة، وكانوا يحملون حقائب ديبلوماسية سوداء من الجلد. جلسوا بعيدا عن الناس، قرب مكتب الاستعلامات. تعرفت عليهم بسهولة، قدمت لهم نفسي، ورحنا ننتظر ساعة الركوب. أحدهم كان يدخن كثيرا، قال لي وهو ينفث مطولا من سيجارته :

ـــ أخيرا انتصرنا في الحرب.

أخبرته أنني جد مرتاح لذلك، وأخذت سيجارة بدوري ورحت أنفث منها. أدرك رجل الاستعلامات أنني لست ثرثارا، فغض عني الطرف، وأخذ يتحدث مع زملائه. كان يتكلم عن عشيقته، ثم عن زوجته، وقال إنه لا يستطيع الاستغناء عن أي منهن... ثم سرعان ما أبدى ميلا لعشيقته. فهي أصغر سنا، وأكثر جمالا، حسب ما فهمت منه.

في الطائرة فضلت الجلوس بعيدا عنهم. شيخ اقترب من الستين كان يجلس بجواري، أخبرني أنه عائد إلى دشرته التي لم تطأها قدماه منذ عشرة سنوات، فقال وهو يمسح نظارته الغليظة بمنديل من الورق :

ـــ هددوني بالقتل. أعرف من هددني. نعم أعرفهم جميعا. رجال من دوار الشعبة، ساندوا الغربان في حربهم.

وضع نظارته على عينيه، وأضاف بصوت رجل متعب، وكان الحزن يملأ عينيه :

ـــ انتهى كل شيء الآن، خسروا الحرب، وانتصرنا. لكنهم قتلوا ابنتي، أخذوها من البيت في وضح النهار، وأخذوها معهم إلى الجبل، جعلوها سبية يتداولون عليها.. أمضت معهم في الجبل شهرا كاملا، وذات يوم قتلوها، حاولت الفرار من المغارة التي كانوا يعيشون فيها، فقتلوها، ماتت، وقع جسدها المدنس على الحشائش البرية الندية، وماتت.. سال دمها.. ابنتي قتلوها، قتلوها وهي في سن العشرين...

توقف عن الكلام فجأة، فوضع يده اليمنى في جيب معطفه، أخرج حامل أوراقه، فتحه، فأراني صورة، وقال :

ـــ إنها هي، ابنتي التي قتلوها.

كانت فتاة جميلة، عيناها واسعتان، وجهها دائري فيه مسحة من البراءة. احترت ماذا أقول لوالدها الجالس بجنبي حزينا. أرجعت له الصورة، فقلت :

ـــ حقا إنهم قتلة.

أرجع الصورة بين أوراقه، وقال :

ـــ علي أن أنسى كل هذا.

ـــ فعلا.

أخبرني أن الحرب لا يستفيد منها سوى المرتزقة. الحرب تغير سلوك الناس سلبا، تجعلهم يفقدون الثقة في كل شيء، ينغمسون في العبث واللاجدوى والقدرية.

صمت برهة، ثم أردف قائلا :

ـــ في هذه العشرة سنوات رأيت الناس حولي يتغيرون بشكل مخيف، انعدام الأمن جعلهم يصابون بحمى المال، يعتقدون أن المال هو خلاصهم، هو من يضمن بقاءهم واقفين، فقدوا الثقة في الدولة، في كل شيء، الدولة في مرحلة معينة عجزت عن حمايتهم، فاعتمدوا على أنفسهم، ذواتهم أصبحت هي مركز الكون، كل شيء يدور حوله، وهذا المركز ظنوا أنه لن يقوى ويصبح ذا قيمة إلا بواسطة المال. ليس المال وحده هو ما أصبح يشكل محور حياتهم، وهوسهم، العنف كذلك أصبح سلوكا يميزهم، من الكبير إلى الصغير، كلهم أصبحوا يعتقدون أن العنف هو الوحيد القادر على إعطائهم مكانة بين الناس، ويكسبهم المال، الكل أصبح يمارس العنف الذي يقدر عليه، كل حسب مكانته. إننا في وضعية مخيفة، لا تبشر بالخير.

كان يتكلم بحكمة، حكمة الرجل الذي كوته الحياة. آلمته، فأصبح ميالا للتأمل الحزين والركون للتشاؤم، نظرت إليه بشفقة، وقلت له :

ـــ ورغم هذا علينا أن ننسى كل شيء.

غرق كلانا في الصمت، وكأننا عاجزان عن مزيد من الحديث، فسمعت مضيفة الطائرة تعلن عن وصلنا إلى الهلالية، وأن الطائرة ستحط رحالها على أرض المطار بعد بضعة دقائق. نظرت إلى الرجل فوجدته ساهيا، علامات التأثر لا تزال بادية على محياه. ولما حطت الطائرة نهائيا وتوقفت، نهضت من مكاني، تمنيت له عودة طيبة، فهز رأسه، أغمض عينيه اللتين لا تزالان مبتلتين بالدموع، واكتفى بالقول :

ـــ يعطيك الصحة، إبق على خير.

التقيت رجال الاستخبارات ثانية، وسرنا سويا. كنت أفكر في آلام ذلك الرجل، وكانت رياح خفيفة تهب على المدينة، والسماء اختفت منها الشمس. وجدنا رجالا من الأمن المحلي في انتظارنا. صعدنا في سيارات مموهة، انطلقت بنا إلى مركز الأمن. لما وصلنا أخبرنا محافظ طويل القامة يدخن كثيرا، أن النساء اللواتي غادرن الجبال رفقة أطفالهن، هن في الحقيقة زوجات أفراد من جماعة سليمان عديم اللقب، ويبلغ عددهن عشرين امرأة وخمسين طفلا. وأضاف بصوته الخشن، قائلا :

ـــ هن الآن في مركز خاص، والأطفال يخ ضعون للرعاية النفسية، لقد ولدوا في المغارات وعاشوا فيها كل سنوات الجنون، إنها مأساة حقيقية.

ـــ نريد أن نرى النساء الآن للشروع في التحقيق، قال له أحد رجال الاستخبارات.

ـــ سنأخذكم حالا.

انطلقت بنا السيارات مجددا إلى مكان المركز، وأثار انتباهي قلة الحراسة التي رافقتنا. أخبرني شرطي كان يجلس أمامي أن الهلالية أصبحت آمنة. ولما وصلنا المركز بعد عشر دقائق من السير خارج المدينة على طريق متعرج بين أشجار الصفصاف، نزلنا، ودخلنا بناية من طابقين تحيطها أشجار صنوبر، وحولها حراسة مشددة. عدة رجال مسلحين كانوا يحرسون المكان، حاملين بنادق على أكتافهم. أحدهم اقترب منا حينما نزلنا من السيارة، صافحنا، وعلمت لاحقا أنه من أشد الرجال الذين حاربوا الغربان، وبلغنا أنه عامل بعض النساء بقسوة شديدة قبل أن تأتيه الأوامر بأن يكف عن تصفية حساباته مع زوجات جماعة سليمان عديم اللقب الذين أبادوا عائلته منذ ست سنوات في الطريق المؤدية إلى العاصمة. كان يبدو صارم الوجه، قاسيا، ذا لحية كثة، أسنانه عليها لطخات بنية، رافقنا إلى داخل البناية، دون أن يعترض عليه أحد، كان يتصرف كأنه سيد المكان، فراح يستبقنا ويتحدث عن ظروف نزول النساء من الجبال رفقة أبنائهن، وقال :

ـــ إنهن متوحشات، كانت تنبعث منهن رائحة كريهة لما سلمن أنفسهن، جلابيبهن كانت مهترئة، وأجسادهن متعبة، ورغم ذلك كن ينظرن إلينا بحقد. أما أبناءهن، فكانوا مشدوهين، فاغرين أفواههم، خائفين. الأصغر سنا كانوا خائفين، ويرددون كلمات "طاغوت، طاغوت"، وهم يشيرون إلينا بأصابعهم الرقيقة، ثم يمسكون عود قصب ويتظاهرون بإطلاق

النار صوبنا، فيرددون "مت يا طاغوت، مت يا طاغوت"

كان المقاوم يتكلم، ونحن نقطع رواقا طويلا مظلما، يؤدي إلى قاعة فسيحة كان ضوؤها يتراءى لنا من وسط الرواق، وينبعث من نافذة بدت لنا لما دخلنا الغرفة مفتوحة على سعتها. كانت القاعة واسعة تشبه قاعات المستشفى، اصطفت على طولها عشرات الأسرَّة، وعليها كانت تجلس نساء ترتدين الجلباب، وكان الأطفال يلعبون هنا وهناك. لما وطئت أقدامنا الصالة توقفن عن الكلام، وهرع الأطفال إليهن، كنا يحدقن فينا بارتياب وذعر، وراح الأطفال يرددون "طاغوت، طاغوت"، فاختفوا وراء أمهاتهم، ثم شرعوا في مراقبتنا من خلف جلابيبهن، فيما نحن واقفون عند عتبة القاعة، ساكنين لا نتحرك، كأننا اكتشفنا عالما جديدا. نظر إلينا مسؤول الأمن المحلي الذي رافقنا، وقال :

ـــ يوجد هنا نصف عدد النساء اللواتي غادرن الزمن المتوحش، والنصف الأخر يوجد في قاعة أخرى في الطابق الأعلى.

ـــ سنبدأ تحقيقنا من هنا. أجابه أحد رجال الاستخبارات.

لما اقتربنا منهن كف الأطفال عن الصياح. بقوا يحدقون فينا مذعورين. أحدهم اقترب مني، مسكني من رجلي، محاولا غرس أسنانه في فخذي، مسكه مسؤول الأمن المحلي، فألقى به إلى الوراء، فخرَّ ساقطا، وقد انبعث الشرر من عينيه السوداوين، ذات النظرات الحادة. أسرعت إليه أمه، فحملته إلى سريرها، وراحت تمسد شعره. كانت ترتدي جلبابا أسود، بينما غطت وجهها بنقاب طويل. اقتربت منها، وقد قلت في نفسي إنها أول امرأة أحقق معها. طلبت كرسيا، أحضره لي

أحد الأعوان على عجل، جلست أمامها، طلبت منها أن تنزع نقابها، فأبدت رفضا قاطعا، على خلاف النساء الأخريات اللواتي أبدين تفهما لم يكن بالسهل، لما لاحظ المقاوم تعنتها، اقترب منها، فهددها بنزع نقابها، لكنها لم تفعل، تراجعت إلى الوراء، وقالت :

ـــ لن أفعل.

مسكت المقاوم من معصمه، وقلت له :

ـــ أتركها لحالها.

ـــ قلت لك إنهن متوحشات، لا يفهمن سوى لغة التهديد.

ـــ لا داعي لذلك.

انسحب المقاوم إلى الوراء، وظل يحدق فينا. أخبرتها أنني أريد معرفة اسمها، فقالت بنبرة متلعثمة :

ـــ أم مصعب.

ابتسمت، فقلت :

ـــ أقصد اسمك الحقيقي.

ـــ قلت لك أم مصعب.

ـــ هل لي أرى بطاقة تعريفك.

ـــ فقدتها منذ عشر سنوات.

ـــ أتصور منذ أن صعدت إلى الجبال.

ـــ نعم.

بقيت مصرة على عدم كشف وجهها وهويتها. ناديت مسؤول الأمن المحلي، فطلبت منه أن يعطيني ما في حوزته

من معلومات بشأنها. كشر وجهه، فطلب منها أن تنزع نقابها ليرى من تكون حتى يتسنى له البحث عن ملفها. لكنها رفضت. اندفع نحوها بعنف، فنزع نقابها بالقوة، تنحنح ابنها من مكانه محاولا الدفاع عن أمه، فتلقى ضربة على وجهه أوقعته أرضا، فراح يبكي.

لما انكشف وجهها وجدت نفسي أمام امرأة شاحبة الوجه، نحيف، برزت عظامه، بدأت تغزوه تجاعيد غائرة. امرأة فاقت الثلاثين من العمر، عيناها تختزنان آلاما دفينة، كانت تبدو منكسرة، محطمة، يائسة، كأنها فقدت الأمل فقدانا كليا. نظرت إلى ابنها، وهو يبكي، فاحتارت بين الاعتناء به، وتغطية وجهها بالنقاب مجددا، وانتهى بها الأمر إلى الإذعان، مفضلة حمل ابنها إليها.

بقيت أحدق في هذا الوجه الماثل أمامي تعيسا غائرا في المأساة، كأنني أعرفه. وبينما أنا كذلك، سلمني مسؤول الأمن ملفا أخذه من محفظته الجلدية، فقال :

ـــ هذا هو ملفها.

مسكته بيدي اليسرى، فتحته، وقلبت صفحته الأولى، فبرزت صورتها أمامي.

ارتعدت فرائصي لما رأيتها، أحسست بالذعر يسري في كامل جسدي. أغمضت عيني غير مصدق بما يجري حولي في تلك اللحظة، فنظرت في وجه المرأة ثم في صورتها، فتيقنت أنني لست أمام حالة هذيان، بل أن الواقع هو الذي يمثل أمامي بكل تفاصيله المأسوية. كدت لا أصدق. حدقت فيها ثانية، فقلت بصوت يكاد يرتعد :

ـــ نازلي.

صوبت نظرها نحوي باندهاش بالغ، حدقت في مليا، فخفضت رأسها، كأنها تعرفت علي، فتغيرت تقاسيم وجهها. بدت مضطربة كأنها تبحث عن خلاص من الوضعية التي هي فيها الآن.

كانت نازلي. نازلي التي أحببت ذات يوم. عشيقتي منذ عشر سنوات خلت. نازلي التي عشقت، التي عذبتني حد اليأس، نازلي التي انتظرت لساعات طوال في باب الواد. كم كان من الصعب تصديق ما رأيته في تلك اللحظة لولا صورة الملف، حتما كنت لا أتعرف عليها. لقد تغيرت بشكل مخيف، ملامح وجهها الجميلة زالت نهائيا، ولم يبق منها أي أثر، كأن رياح الزمن طمستها نهائيا، وحولتها امرأة أخرى، لا مسحة جمال على وجهها، حتى بهاء عينيها اختفى، وامتلأ وجهها بآثار ندب ظلت عالقة رافضة أن تزول، كانت تبدو كأنها بلغت من العمر ستين عاما.

وبينما كنت أحدق فيها باندهاش، قلت لها :

ـــ أنا زينو.

اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت :

ـــ تعرفت عليك في اللحظة التي دخلت فيها القاعة.

ـــ كيف وصل بك الأمر إلى هذا الحال ؟

صمتت برهة، ثم قالت :

ـــ يبدو أنك لم تسأل عني منذ أن انفصلنا.

لم أكن أرغب في العودة معها إلى تلك الأيام التي عرفتها فيها. رحت أقلب أوراق الملف، كمن تهرب من سؤالها،

فحاولت أن أضفي طابعا رسميا على علاقتي بها في تلك اللحظة، حاولت أن لا أنسى المهمة التي جئت من أجلها من العاصمة، فقلت لها :

ـــ زوجك هو أبو قتادة، أليس كذلك ؟

رفضت أن تجيبني عن سؤالي، احمر وجهها، ونظرت صوب ابنها، المنزوي في مكانه، فأحسست أنني رغبت في إذلالها، بقول هذه الحقيقة المخزية. كنت كمن أراد أن ينتقم، وإخبارها أنها تخلت عني، فنالت جزاء قاسيا.

لم أجد ما أقوله لها بعد هذا السؤال، ألقيت نظرة إلى الخارج، عبر النافذة الكبيرة المنفتحة على سعتها أمامي، فبقيت أتأمل في السحب المبعثرة في السماء.

لما نظرت إليها ثانية، ألفيتها تبكي، كانت الدموع تنسكب على خديها في صمت، وكان ابنها يرميني بنظراته القاسية، قلت في نفسي إنني هنا من أجل التحقيق مع امرأة عادت من الزمن المتوحش، وليس من أجل استعادة حب ضائع لم يبق منه أي شيء، باستثناء ذكريات قاسية لم يعد لها أي مكان في حياتي، فطرحت السؤال مجددا :

ـــ أبو قتادة هو زوجك، أليس كذلك ؟

مسحت نازلي دموعها، نادت ابنها، أجلسته بالقرب منها، وأجابت :

ـــ نعم، أنا زوجة أبي قتادة، وهذا ابني مصعب. عشت في المغارة سنوات طويلة. وهذه هي قصتي...

.2

حكت لي نازلي قصتها. قصتها الحزينة. أفضت لي بتفاصيل حياتها بعد أن اختارت الانفصال عني. سردت مأساتها، وهي تبكي. بكت كثيرا، فاحمرت عيناها. بكت وابنها بين يديها. كانت تحكي، وابنها يتبعها بعينيه القاسيتين، يتفحصها.

حكت نازلي قصتها، فقالت :

لا مناص، وقعت بين مخالب الهلاك، وأنا التي اختارت ذلك. تركت رياح الشؤم تعصف بحياتي، ورميت بنفسي بين أحضان رجل عنيف ساقني إلى المغارة.

تعرفت على زكريا زوجي في حفل زفاف. قدمته لي أختي، وقالت لي إنه يبحث عن فتاة للزواج. تركتني أندفع نحوه بدون أدنى تردد. أخذتني إلى مكان منزو، وأخبرتني أنه تاجر يملك محلا لبيع ملابس النساء في سوق إبراهيم آغا. سال اللعاب من فمي، وتخيلت نفسي زوجة رجل ثري وقبلت بالتعرف عليه. التقينا في قاعة شاي بقلب العاصمة. كانت قد مرت بضعة أشهر على تعرفي بك. أتذكر أنني وعدتك بأن نلتقي ذلك اليوم، لكنني خالفت وعدي والتقيت به هو، وتركتك أنت تنتظر. كم كنت قاسية معك. مع مرور الزمن أدركت أنني أخطأت معك. كنت إنسانا طيبا. ربما لم أكن خليقة بأن أصبح زوجتك كما كنت تحلم، قلت لنفسي لاحقا إنك تستأهل امرأة أكثر رقة، امرأة تتفهم عمق مشاعرك، وتستجيب لحساسيتك التي كنت أسخر منها، بل وأحتقرها، والتي أراها الآن كشيء ثمين طالما بحثت عنه عند زوجي فلم أعثر عليه. إن الإنسان لا يدرك قيمة الأحاسيس النبيلة، إلا حينما يتعرف على نقيضها،

بعد أن يدفع الثمن غاليا، يصبح يتوق إليها وقد أصابه الظمأ لها، ولما يدرك أن كل شيء انتهى، ينخره الندم كالسوس، ويصيبه اليأس، وتغدو أيامه مُرة. إن الحسرة تقتل الإنسان، وقد قتلتني. كم تحسرت على تلك الأيام التي قضيتها معك، كان بإمكاني أن أنتظرك حتى تتوظف، لكنني لم أفعل، تصرفت مثل فتاة حمقاء، تريد الزواج، فتاة لا هدف لها في الحياة سوى البحث عن رجل غني يريدها زوجة له، لكن الزواج كان مرتبطا عندي بالطمأنينة، طمأنينة المال. اكتشفت لاحقا أنني لم أكن أبحث فقط عن المال بل حتى عن الرجل القوي الذي يحميني من هول الزمن. كنت أتصرف مثل المرأة الساذجة التي تنظر إلى الرجل من زاوية القوة، قوة الجسد والفعل. لم تكن أنت تملك لا القوة ولا المال. كنت تائها، حزينا، لا قدرة لك على مواجهة الحياة، تقضي وقتك بين الكتب، بدل أن تتشيطن مثل كل الناس. كانت الثروات تتكون في السوق الموازية، على أرصفة الطرقات، بين حملة الشنطة القاصدين وجدة واسطنبول ودمشق وحيثما توجد السلعة الرخيصة. وأنت كنت تحلم بأن تصبح كاتبا. كم كنت أسخر منك عندما تحدثني عن الروائيين والفلاسفة. كنت أعتبرك إنسانا ساذجا. لا شيء فيك كان يثيرني ويدفعني نحوك. لم أكن أدرك حينها أن الحياة تبنى بواسطة التضحية. طبعا لم يكن بإمكاني إدراك ذلك، فأنا كما تعلم أنتمي إلى جيل لم يتعلم التضحية من أجل مثل أعلى، جيلنا اكتسب الإيمان الأعمى في المال والقوة، وفي الرجل الذي يملكهما، الخطر الذي كان يحدق بنا، جعلنا نشعر بالخوف، ذلك الخوف الذي كنت أراه في عيني والدي بعد أن وجد نفسه عاطلا عن العمل، المصنع الذي اشتغل فيه سنوات طويلة، أقفل أبوابه، الدولة قررت طرد العمال، ألقت بهم في

الشارع، فأصبح والدي عاطلا عن العمل، تغير حاله، انعزل في غرفته ومكث فيها لا يغادرها، صامتا، متأملا حاله، حال الرجل غير القادر على التكفل بعائلته. ولما تعرفت عليك أنت، كنت عاطلا عن العمل مثل والدي، ربما ذلك هو السبب الذي جعلني أقسو عليك، غضبي من وضعية والدي، فجرته فيك أنت، كنت أمقت وضعيتي كابنة رجل غير قادر على التكفل بعائلته، كان ذلك يرهقني، فكيف كان لي أن أرتبط برجل مثل والدي، عاطلا عن العمل، كنت تمثل صورة البؤس والشقاء، وأنا كنت أبحث عن رجل يحميني من هول وتقلبات الزمن، والحقيقة كنت أعتقد أن المال هو الوحيد القادر على منحي ذلك الإحساس بالاطمئنان الذي طالما بحثت عنه. بقي هذا الإحساس يراودني، لأن والدي أصبح عاجزا، عاجزا على منحنا لقمة العيش، وكان ذلك أمرا مروعا، مخيفا، يبعث على القلق واللاطمأنينة.

كان زوجي يحقد على المسؤولين الكبار، هؤلاء الذين تسببوا في مأساة والدي الذي انتحر بعد زفافي بشهر. ألقى بنفسه من الطابق الخامس، فوقع ميتا. سئم من حياته، لم يعد نافعا. أمي كانت تشتغل عند الأغنياء، وهو عاطل عن العمل. لقد فقد كرامته. ربما أدرك أنه انتهى كرجل، فرفض أن يستمر في العيش. حياة الرجل تنتهي لما يحس بالاحتقار، لما يحتقره الآخرون، وأمي أصبحت تحتقر والدي، لم تعد تثق فيه. خرجت للعمل في بيوت الأغنياء، ولم تكن ترغب في ذلك أبدا. إن الرجل لا يساوي شيئا لما تكون جيوبه خاوية، يفقد قيمته، ينفر منه الجميع. هكذا هو زماننا، إنه زمن لا يرحم. وحتى لما تزوجت وأرغمني زوجي على ارتداء الجلباب والعيش كأننا في

القرون الوسطى، كمجرد كائن يختفي تحت قماش أسود، لم أتردد، أحسست أنه منحني ملجأ يخلصني من الاضطرابات التي كانت تهز حياتي. وفي الجلباب وجدت ملجأ آمنا.

قبل الزواج، أدركت أن خطيبي رجل عنيف، يختلف عنك كثيرا، أنت الرجل الحساس والمتفهم إلى حد السذاجة، كنت ذلك الرجل الذي خضع لي خضوعا أعمى. سعدت إلى حد النشوة بعنف زوجي، كنت أتلذذ بقسوته، بتعذيبه إياي. أحيانا كان يضربني، وأحيانا أخرى كان يطردني إلى البيت فقط لأنني ارتديت لباسا قصيرا، فكنت أزداد حبا له. كنت أخاطب نفسي، وأنا أشعر بالأمان يغمرني، أنني عثرت أخيرا على رجل حقيقي، رجل قوي، وعنيف، فأحسست بالاطمئنان الذي لم أكن أحس به معك.

تزوجت إذن في عز الصيف، في يوم قائظ. أتساءل الآن بعد مرور كل هذه السنوات، هل كنت تعلم ؟ هل سألت عني ؟ لم أسأل هذه الأسئلة آنذاك، لقد نسيتك، كأنني لم أتعرف عليك يوما. بكى والدي لما رآني أغادر البيت، في ثوب العروس الأبيض. صعدت سيارة العروس، مرسيدس بيضاء، تملأني الغبطة، ورغم ذلك بكيت، وفي ليلة الدخلة جرى ما كان يجب أن يجري في لحظات، وبعد شهرين حملت بابنتي راشدة التي ماتت في الجبل، أخذها تيار نهر جارف كنا بصدد عبوره فرارا من الجنود الذين عثروا على مخبئنا، ولم يتمكن أحد من إنقاذها، ماتت وعمرها لم يتجاوز الخمس سنوات. أخذها تيار النهر الجارف، وهي تصيح ولا أحد تمكن من إنقاذها، وكان زوجي يرتل القرآن بدل أن يخلصها. كان يعتقد أن الله سوف ينقذها.

وفي تلك الليلة اكتشفت أمرا مروعا ظل عالقا في ذاكرتي، لم أتمكن من كنهه إلا بعد سنوات. جسد زوجي كان مشوها من الصدر إلى غاية البطن، مملوءا بحروق وندب سميكة يمتد بعضها من أعلى الصدر إلى أسفل البطن، حتى ظهره كان مشوها، الندب ذاتها، والحروق ذاتها، من الأسفل إلى الأعلى، كانت تبدو لي كأنها علامات التعذيب، ولما سألته إن كان الأمر كذلك، غادر الغرفة، ورفض أن يجيبني، وبعد سنوات طويلة، بعدما أصبحنا فريسة الزمن المتوحش، دخل المغارة مبتسما، يمرر أصابعه على لحيته الطويلة، ابنتي راشدة كانت ما تزال على قيد الحياة، وجدها نائمة، فقبلها، كانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها يقدم على تقبيل ابنتنا، كان سعيدا، يبتسم، ويمسد لحيته الطويلة، اقترب مني فأخبرني أنه جد سعيد، ولما سألته عن السبب، أخبرني أنه وضع حدا لحياة رجل كان السبب في دفعه إلى الزمن المتوحش.

لقد تزوجت رجلا غاضبا، يختزن الحقد في داخله، ولم أكن أدري ذلك، كان زوجي يتوجع ليلا، أحيانا ينهض على وقع كوابيس مفزعة تجعله يصيح بأعلى صوته، كان رجلا جريحا، ضرب في صميم كرامته، فقد عذبوه في السجن لما أمسكوا به وهو يذرع شارع الثورة لما انتفض الشبان في خريف الغضب، واعتدوا عليه، علمت لاحقا من أمه أنهم لم يكتفوا بتعذيبه بتلك الطريقة الفظيعة، بل مارسوا عليه أفعالا مشينة. كانت السماء مكفهرة ذلك اليوم والرعود كانت تدوي في أرجاء المغارة، كان البرق يضيء وجهه، ويعبر الظلام الحالك، فلاحظت أن أضراسه وبعض أماكن من وجهه كانت ملطخة بالدم، سألته كيف قتل الرجل. صمت ورفض أن يخبرني.

الحياة تخبئ لنا أسرارا كثيرة، ولا أحد يعرف أين تأخذه، والمستقبل ليس سوى لغزا مخيفا، وكذلك الإنسان، نكون عنه فكرة ما، لكننا سرعان ما نكتشف نقيضها. اعتقدت أن زوجي، كان مثالا للرجل المستقيم رغم عنفه، ودخلت بيته، وأنا راضية، هادئة البال، لا شيء كان يجعلني مضطربة فريسة الأفكار المنغصة. كانت أوقات الصباح الباكر هي أسعد لحظات حياتي، كنت أنهض باكرا، أفتح نافذة المطبخ على مصراعيها، فتلج أشعة الشمس الصباحية أرجاء المطبخ بكامله، فتملأني غبطة وسعادة، وإحساس بالطمأنينة التي طالما بحثت عنها، وكانت رائحة القهوة الصباحية، تبعث الفرحة في داخلي، وحينما يستيقظ زوجي ويلحق بي في المطبخ، كانت سعادتي تكتمل، نتناول فطور الصباح سويا، ونتحدث عن أشياء عادية، وأنا أحدق في السماء من النافذة المفتوحة على مصراعيها.

كل شيء كان يبعث على العيش السعيد، ولست أدري كيف انقلبت الأوضاع. حزنت بعد انتحار والدي، لكنني سرعان ما نسيت ما جرى. وذات يوم، بينما بلغت الساعة السادسة مساء، لم أسمع وقع دقات زوجي على الباب كالعادة، وقفت في البلكون أنتظره، رغم البرد والأمطار التي كانت تتساقط غزيرة ذلك اليوم. كنت مضطربة، خائفة، أرتجف، كأنني أنتظر أمرا مجهولا، وكان يراودني إحساس بوقوع سوء لا مناص منه. وفيما أنا أنتظر لمحته قادما من بعيد، يسير بخطى ثقيلة، كأن مكروها ألم به. تزايدت دقات قلبي، فأسرعت الخطو نحو الخارج، عبرت الصالون بسرعة، فتحت الباب، واندفعت بنفسي إلى الزنقة، نزلت سلالم العمارة جريا، ولما التقيت به، وهو يدخل العمارة، سألته قائلة :

ـــ ماذا بك ؟

نظر إلي نظرة حزينة، فقال :

ـــ أخذوا مني المحل.

ـــ لماذا ؟

لم يجبني، صعد السلالم ببطء، تبعته، وكنت أرتجف. ولما دخلنا البيت سألته :

ـــ من أخذ منك المحل ؟

ـــ المير.

ـــ كيف ؟

ـــ قام بإلغاء قرار الاستفادة.

ـــ ولماذا فعل ذلك ؟

ـــ لست أدري..لست أدري.

ـــ وماذا ستفعل الآن ؟

ـــ لا شيء.. إنها الحكومة، لا أقدر على شيء.

أصابه الأرق منذ تلك الليلة، وكف عن الكلام. أحجم عن الأكل، وانزوى في غرفته، لا يبرحها، ركن للصمت، لا يكلمني. وذات يوم بينما كانت أمه تجلس على حافة سريره، كنت أنا في المطبخ أحضر له حساء بالخضر، كانت تتكلم معه بصوت خافت، ولما ولجت الغرفة، صمتت. صمتت لما رأتني أدخل، استقامت في جلستها، كأن بينها وبين ابنها سرا، لا تريدني أن أطلع عليه، لم أهتم بالأمر حينها، وضعت الصينية على الطاولة أمامها، وعدت إلى الصالون.

ظل سره دفينا. خبأه في أقاصي ذاته، ورفض أن يبوح به. وكم كان ذلك ثقيلا عليه. ليس سهلا أن يتحمل الإنسان سرا من تلك الأسرار التي حملها زوجي طيلة تلك المدة الطويلة التي سبقت ذلك المساء الشتوي بينما كان الثلج يكسو الأرض في جبال الهلالية التي وطأتها أقدامنا سنة 1994 بعد أن قرر الالتحاق بجماعة سليمان عديم اللقب، وتمكنه من إقناعي باللحاق به رفقة ابنتنا راشدة، ولم أتردد ولو لحظة لما أخبرني بقراره. قال لي "سنصحح الزمن، لنعيش سعداء".

لست أدري الآن بعد مرور كل هذه السنوات الطويلة، إن كان الخوف من زوجي هو الذي دفعني إلى الثقة فيه، أم رغبتي في الثأر لوالدي واقتناعي بأفكار زوجي. لست أدري، فعلا، لست أدري. في ذلك المساء الشتوي إذن بينما كنا بصدد قضاء أول ليلة لنا في مغارة مظلمة، قرر أن يفضي إلي بسره الدفين، لقد فعل ذلك ربما لكي يبرر قراره. أتذكر أنه كان يتكلم بألم. كانت يداه ترتعدان، وامتقع لون وجهه، كأنه مقبل على اعتراف خطير، حيرني أمره، فأخبرني أنه ابن رجل يدعى مصطفى بن أحمد الهواري، المتوفي يوم 28 ماي 1957، هجرت أمه كلثومة دوار بني ريح بعد أن نجت من مجزرة اقترفها المجاهدون في حق سكان الدوار. أخبرني استنادا إلى رواية أمه أن كولونيل الولاية الثالثة أرسل من الشمال كوموندو مدجج بالأسلحة وكلف قائدها بإبادة أهل الدوار عن بكرة أبيهم بتهمة الخيانة. نجت أمه من الموت بأعجوبة. كانت الوحيدة التي نجت من المجزرة حسب روايته. والدي قتل ذبحا، هكذا قال لي، بينما كانت هي مختبئة وسط الأحراش. لقد قتلوا والدي، وأنا لا أزال بعدُ في بطن أمي جنينا عمره ثلاثة أشهر.

الكولونيل كومبيت قائد الكتيبة الفرنسية المتواجدة بالقرب من الدوار، بلغه ما كان يجري، لكنه تباطأ لإرسال جنوده، كأنه ترك المجاهدين يبيدوننا عن بكرة أبينا، ولما وصل إلى المكان في صباح اليوم الموالي على التاسعة والنصف، كانت رائحة الموتى تنبعث من كل جهة، إنها صورة فظيعة تلك التي ما تزال تحملها أمي في ذاكرتها، ونقلتها إلى ذاكرتي بالفظاعة ذاتها، برائحة الدم، بصياح الأطفال، بتضرعات الشيوخ، بتفاصيل كثيرة أججت الحقد في داخلي.

انتشر الموتى في كل مكان، الدم راح يتخثر، بعض الموتى قطعت رؤوسهم، وآخرون قطعوا إربا إربا. لم ينج أحد، حتى الأطفال والشيوخ والعجائز أبيدوا، وبينما كانت حرارة الشمس في طريقها إلى توسط كبد السماء، أخذت الجثث في التفسخ من شدة الحر، فتعالت في الجو الثقيل رائحة الموت، وكانت كريهة لا تطاق. كل الجثث ألقيت في مقبرة جماعية، حرارة الشمس لم تسهل عملية الدفن الفردي. أبي ليس له قبر، دفن مع كل الناس، وأمي أصبحت خادمة عند الكولونيل كومبيت، كانت مستعدة لفعل أي شيء للثأر لأبي، وقد ظهر كومبيت بوجه إنساني، مما جعلها تعدل عن فكرة الهجرة إلى الشمال.

هكذا إذًا، أخبرني زوجي، في تلك الليلة الثلجية ونحن في المغارة المظلمة . لما انتهت الحرب، وغادر الكولونيل كومبيت البلاد، كادت أمي أن تقتل ثانية من قبل المحاربين الذين نزلوا من الجبال، اتهموها بخيانة أخرى لما وصلهم أنها اشتغلت كخادمة عند كومبيت، استعدوا لرميها بالرصاص مساء يوم قائظ، وتراجع قائد الكتيبة عن قراره لما أبصرني أبكي وأصرخ، سمعته يصيح قائلا : "خلوها"، فنجت أمي من الموت الذي

لاحقها مجددا، أتذكر أن المحارب الذي كان يمسكني من يدي، أخلى سبيلي، فأسرعت الخطوة نحو أمي. وجدتها ترتعد وهي جاثمة على ركبتيها، لن أنسى ذلك. هؤلاء المحاربون كم أحقد عليهم، قتلوا والدي، وكادوا يحرمونني من أمي. لم أنس هذا طيلة حياتي. أذاقوني طعم الموت، وأنا صغير. واليوم أنا من يجعلهم يذوقون الطعم ذاته، سأقض مضاجعهم، سأحرمهم من الهدوء، قبل قتلهم، سأجعلهم يرتعدون مثلما ارتعدت أمي، وأبي قبل أن يذبحوه، وبقية أهلي.

أتذكر أنه أخبرني بعد مرور أشهر عن هذه الليلة أنه كتب رسالة مطولة ذات مرة، وأرسلها لوزير قدماء المحاربين، شرح فيها أن أهله ليسوا خونة ولا حركى كما أشاعوا، وانهم كانوا موالين لذلك الزعيم المبجل المدعو سيدي الحاج، وطلب منه أن يقدم له ولأمه اعتذارات رسمية عن ما ألحقوه بأهله من قتل وذبح، لكن الوزير رفض أن يجيب، فكان صمته عبارة عن نوع من الاحتقار، احتقار زاد من حدة حقده، كان يقول : "كنت مستعدا ليس للنسيان، بل لترك الحقد جانبا، لو قدم لنا اعتذارات رسمية، لكنه لم يفعل، بل عمق من شدة آلامي، وزاد من حقدي. لو اعتذر لنا، ما اخترت العيش في الزمن المتوحش، لكن نفسيتهم المتعالية هؤلاء الرسميون، واحتقارهم للناس، دفعني للثأر لأهلي. ظلوا يتهموننا بالخيانة، وكنا ضحية وضعية تاريخية، هذا ما رفضوا التسليم به، لقد غذوا في داخلي رغبة القتل والانتقام، بدل أن يخففوا من حدتها. هكذا أصبحت قاسيا، عنيفا أرتاب في كل شيء".

لما نزل المحاربون من الجبال منتصرين، كنت طفلا في الخامسة، حزمت أمي أمتعتها، وغادرت ثكنة الكولونيل

كومبيت، حملتني على ظهرها، واستقرت في مدينة مجاورة. اشتغلت كخادمة في بيت أحد الفرنسيين الذين لم يغادروا البلاد. مكنه تعاونه مع المحاربين خلال حرب السبع سنوات من تحقيق رغبته في البقاء على الأرض التي ولد فيها. كان رجلا طيبا، لكنه كان يبدوا لي حزينا، منهكا، علمت لاحقا من أمي أن زوجته وابنته اغتيلتا على مرأى منه. اقتحم رجال ملثمون بيته في ربيع 1962، وأطلقوا النار في كل الجهات، أصابوا زوجته وابنته، ثم انسحبوا بينما شرع هو في صياح هستيري، وانتشر خبر ما جرى بسرعة، قيل أن أعضاء من الجيش السري قتلوا السيدة أرنو وابنتها، وأضافوا أن السيد أرنو كاد ينتحر، ولم يستعد وعيه إلا بعد أسابيع عديدة.

كان السيد لويس أرنو يعامل أمي معاملة حسنة، وأحيانا كان يأخذني معه إلى شوارع المدينة، ويشتري لي أشياء لذيذة، زلابية، حمص مغموس في السكر. كنت أحبه كثيرا ذلك السيد لويس الذي قتل وسط المدينة ذات يوم من قبل محارب ظل يختزن الحقد تجاه الفرنسيين، قتله بسكين غرسه في بطنه، ومضى في سبيله، رافعا رأسه، كأنه أقدم على واجب وطني. كان المحارب غريبا عن المدينة، لا يعرف شيئا عن ماضي السيد لويس، ولا عن مأساته، كما لا يعرف أنه فقد زوجته وابنته لأنه اختار الوقوف في صف المحاربين. كان يجهل كل هذا، نزح من قرية جبلية ذلك الصيف، عثر على فرنسي في طريقه، فقتله. كانت المسألة بسيطة بالنسبة له. وضع في السجن بضعة أشهر، وأطلق سراحه بعد الانقلاب العسكري.

وفاة السيد لويس أربك أمي. وجدت نفسها بدون مأوى. المنزل استولى عليه رجل فظ يدعى بتقة لخضر، فطردنا حال أن

وطئت أقدامه المنزل. صعدنا إلى الشمال، فضلنا العيش في العاصمة، أين يكثر الناس، وأين بإمكان الإنسان أن ينسى ذكرياته المزعجة، هكذا قالت لي أمي ونحن على مشارف المدينة البيضاء التي دخلناها عند منتصف نهار يوم قائظ.

لم يكن لنا أقارب في المدينة، أهلنا قتلوا، اتضح لنا منذ البداية أن الأمور لن تكون سهلة. أتذكر أن أمي راحت تبكي مع غروب الشمس. سننام على قارعة الشارع إن اقتضى الأمر، قالت لي وهي تمسد شعري. لكننا لم ننم في الشارع، أخبرنا رجل مسن كان يتحدث بلكنة أهل الجنوب، أنه بإمكاننا العثور على منزل شاغر في الضاحية الغربية. صعدنا في حافلة متوجهة إلى هناك، وبعد ساعة نزلنا في غيوت فيل، وبها وجدنا مسكنا صغيرا بحي يقع بمحاذاة البحر بالقرب من ميناء لامادراغ. عشنا في عزلة عن الناس، مرة أخرى عثرت أمي على عمل في ثانوية قريبة، كذبت على المدير، وقالت له "أنا أرملة، زوجي استشهد في الحرب"، عطف عليها، فوظفها في اليوم الموالي، وظفها كخادمة. آنذاك كل أرامل الشهداء وظفن كخادمات. عشنا حياة هادئة رغم الحزن الذي ظل يخيم على بيتنا، أنا كنت محروما من الأب، وأمي من رجل يسندها. كنت أحس أنني مختلف عن الآخرين، قال لي، وعيناه تمتلئ دموعا، تسارعت فجأة وسالت على وجهه جارية، مسحها بكم معطفه، وقال : سألتها ذات يوم عن والدي، فأخبرتني أنه استشهد في الحرب. كانت أمي بحاجة لكي تكذب علي، وتضع الطفل الصغير الذي كنته آنذاك في عالم البطولة المزيفة، فكيف لها أن تقول الحقيقة. كذبت علي مثلما كان يكذب كل الناس آنذاك، خلقت لي أوهاما، وصنعت

لي ذاكرة نسجتها بالأكاذيب، فالجميع كان بحاجة لمرويات بطولية حتى يتمكن من رفع رأسه، ويتحصل على قسط من الامتيازات، وتجاوز الآلام، وصور الشقاء التي ظلت عالقة في أذهان الناس. أعرف الآن أن معظم الناس تعرضوا لكثير من العذابات، غالبيتهم أهينوا بشكل حقير، ومن تعرض للإهانة بتلك الطريقة المخزية يصبح بحاجة للكذب والبطولة المزيفة لكي يتجاوز مأساته. الامتياز الوحيد الذي تحصلت عليه أنا آنذاك هو أنني كونت صورة بطولية عن والدي. أنا كذلك كنت بحاجة لهذه الأكذوبة، لقد أخرجتني من المأزق وأنا صغير، عشت مدينا لها لسنوات طويلة، وذات يوم اكتشفت الحقيقة المروعة التي أقضت مضجعي. لما أدركت أمي أنني قادر على تحمل الحقيقة، والصورة المغايرة لوالدي، تلك الحقيقة والصورة التي أرادها له الآخرون، والتي لم يصنعها لنفسه، أخبرتني بما جرى في دوار بني ريح، قتلوا والدك ذبحا قالت لي، ومعه كل أهل الدوار، وضعتني أمام حقيقة قاسية، تغيرت الصورة في بضع لحظات، فاكتشفت الحقيقة المؤلمة. أصبحت إنسانا آخر، إنسانا حاقدا، يختزن الغضب. أتذكر أنني غضبت على أمي، وصحت فيها قائلا : الكذب أهون من الحقيقة، كان عليك أن تتركيني كما كنت مستمتعا بطمأنينة مزيفة. فأجابتني أنها بحاجة للإفضاء بخوفها وتقاسمه معي. وعرفت لاحقا أن أمي كانت ضحية خوف متجدد يقف على عتبة الباب في كل مرة تحتفل فيه البلاد بعيد الثورة. كان يأتي إلى غيوت فيل رجال غرباء، يرتدون بذلات سوداء، ينزلون من سيارات رسمية، يغطون أعينهم بنظارات شمسية عريضة، يطرقون أبواب أهل الحي، ويذكرونهم بالثورة، والمحاربين الذين رموا بالرومي إلى البحر، وبالخونة وعملائهم من الحركى. وكانت أمي ترتعد من

شدة الخوف، حينما تفتح لهم الباب. كانت تخشى أن ينكشف أمرنا، ونغدو حديث الناس الذين لن يرحمونا، ويشيرون لنا بأصابعهم، لكن في كل مرة كانت الأمور تسير على الوجه الذي كان يطمئن أمي.

لم أحس بالطمأنينة منذ ذلك اليوم إذًا، اعتقدت أن كل الناس من حولي يستحقون الموت لكي أنتقم لوالدي، نعم كان علي أن أنتقم، هكذا كان يردد الرجل الذي تزوجته، ونحن ما نزال جالسين في المغارة المظلمة. تزوجته ولم أكن أعلم بكل هذه المأساة، كان يخفيها في أعماقه، لم تكن تظهر عليه إلا علامات الحزن، كانت قد مرت ثلاث سنوات على حصوله على محله بسوق إبراهيم آغا، بعد أن وافق البنك على منحه سلفة مالية، يسددها على مدى خمسة وعشرين عاما. ربما أحد الموظفين اكتشف أمره، ووشى به لوزارة قدماء المحاربين، فظهر ابن من يكون، حتما هذا ما جرى، ربما الرجال ذوو البذلات السوداء (كان يعتقد أنهم اختفوا عن الأنظار بعد أحداث خريف الغضب، وكفوا عن طرق أبواب أهل الحي لتذكيرهم بالمرويات البطولية خلال الثورة) هم من اكتشف حقيقته، فوشوا به. أحس أنني منبوذ قال لي تلك الليلة حينما أخبرني بقرار حرمانه من محله. اسودّ الكون من حوله، ولم يعد يقوى على مواجهة مصيره التعيس، فركن إلى غرفته لا يبرحها، لا يكلمني، ويستغرق في تفكير طويل، فنمت لحيته طويلة، وبعد مدة أصبح يكثر من الصلاة، يصلي طول النهار، ثم يتركها، ويعود إليها مجددا. كانت الأحداث من حولنا تتسارع، بينما هو غائب عن الدنيا، يعيش في عالمه، غير آبه بما يجري. أثناء الليل بينما كنت أخلد للنوم، كنت أسمع دوي طلقات

نارية، قادمة من بعيد، ترافقها صيحات تستجدي الله، وتكبر به. كانت البلاد قد انزلقت إلى عالم آخر، وزوجي مازال في عزلته، وقد دامت خمسة أشهر متتالية. أمه هي التي كانت تنقل له الأخبار، تظل في الشارع تتنقل بين الناس، وتعود في المساء لتحكي له ما كان يجري. ذات مرة رأيت السعادة ترتسم على وجهها، وسمعتها تقول لابنها "سينتقمون لنا". ولما قرر زوجي وضع حد لعزلته، والتغلب على آلامه، كان الربيع يطل باحتشام، فالأمطار لم تكف عن التساقط، والطقس ظل باردا كأنه الشتاء، أخبرني أنه سيبحث عن عمل نعيش منه، فزال عني هاجس الخوف الذي كبلني طيلة تلك الأيام الطويلة، وبعد أسبوع اشتغل كبائع ملابس النساء على الرصيف، وفي تلك الفترة شرع في التردد على شلة من الأصدقاء ليلا، يغادر البيت في حدود الثامنة، ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، فيجدني في انتظاره، كنت أسأله أين كان يذهب، فيجيبني أنه يجلس في المقهى، قلت له ذات يوم إن الزمن أضحى صعبا، وعليه أن يمكث في البيت، فحدجني بنظرة قاسية، فقال لي "لا تتدخلي في شؤوني الخاصة". ومع مرور الأيام، أصبح يجلس مطولا رفقة والدته في غرفتها، السر الذي كنت أعتقد أنه يتقاسمه معها لم يعد مجرد شك، بل حقيقة تأكدت منها مع مرور الزمن، وفي كثير من المرات، كان يدخل غرفة أمه، ومعه أكياس سوداء، فيها أشياء مهمة، كان يحرص عليها، لم أكن أعلم حينها أنه كان يخبئ مسدسات وأسلحة أخرى، كما لم أكن أعلم أنه شرع في الإعداد للزمن الموحش. أمه هي الوحيدة التي كانت على علم بعلاقته مع جماعة سليمان عديم اللقب التي كانت تنشط في قلب العاصمة. أمه هي التي شجعته على ذلك، أخبرته أن جماعة سليمان على حق، وعليه أن يلتحق

به لكي يثأر لوالده. هو الذي أخبرني لاحقا أن أمه هي التي دفعته للعمل معه، نعم أمه هي التي صنعت منه رجلا مستعدا للانتقام، فالإنسان لا يولد قاتلا، بل نحن من نصنع منه المجرم البشع الذي ينزع الأرواح. لست هنا بصدد تبرير أفعال زوجي، لكنني فقط أقول الحقيقة، لقد كان ضحية أمه، ضحية الآخرين، ضحية الماضي، ضحية القدر، ضحية الصيرورة غير الطبيعية لحياته في علاقتها مع الآخرين، ضحية الأشخاص الذين زيفوا الحقيقة، وتعنتوا في تزييف الماضي، ماضي أسرته.

بعد عملية شارع سانت أرنو التي تعرفها، دخل البيت متأخرا. كنت في انتظاره، فريسة القلق، وفجأة سمعت وقع دقات متواصل على الباب، وجدته أمامي على العتبة يلهث من شدة الجري، قال لي "يجب أن نغادر البيت حالا". سألته إلى أين، فقال "إلى قرية صغيرة بالقرب من دوار الخشنة". ولما سألته عن السبب، أخبرني عن نشاطه، وقال "سيعذبونك لو عثروا عليك، سيفعلون ذلك فقط لأنك زوجتي". أحسست أن الدنيا كانت تدور من حولي، فقدت الطمأنينة في رمش العين، وانقلبت حياتي على كف عفريت. كنت أرتعد من شدة الخوف، فأدركت أنني في ورطة حقيقية. أمه التي كانت نائمة في غرفتها، نهضت لما سمعتني أبكي، حضنت ابنها فأخبرها أن شرطيا تعرف عليه لما نفذ عملية شارع سانت أرنو، وعليه أن يلتحق بالجبل. "نحن ذاهبون إلى الجبل إذن" قلت له، فكذب عليَّ أخبرني أنه هو من يصعد إلى الجبل، في حين أبقى أنا في القرية الصغيرة، حتى يتسنى له زيارتي ليلا. هكذا كانت بداية المغامرة التي أوصلتني إلى المغارة، لقد انقلبت حياتي رأسا على عقب، أصبحت زوجة رجل فضّل العيش في الزمن

الموحش، فوجدت نفسي في كوخ حقير وسط حوش منعزل يقع أسفل جبل. وصلنا إلى هناك في اليوم الموالي. صعدنا في سيارة من طراز غولف لونها أسود، وكان السائق شابا في مقتبل العمر، اسمه أبو حمزة يحي، كلما بلغنا نقطة تفتيش للشرطة أو الجيش، كان يخرج بطاقة شرطة، ونمضي بسلام، علمت لاحقا من زوجته التي تزوجها في الجبل، وكانت من السبايا اللواتي أختطفن من أهلهن عنوة، أن أبو حمزة هذا كان شرطيا حقيقيا، لكن جماعة سليمان عديم اللقب تمكنت من استمالته للعمل معها، فكان يترصد تحركات رفاقه، ويخبر رفاقه الجدد بالمكان الأمثل لاغتيالهم.

عند منتصف النهار، وصلنا إلى دوار الخشنة بسلام، وكانت الشمس كانت حارقة، وكان جبيني يتصبب عرقا. لم نعثر على أي نقطة تفتيش، ونحن نلج هذه القرية التي تشبه القرى الأفغانية، فسمعت أبو حمزة يقول "أننا في قرية آمنة". كانت السيارة تعبر الشارع الرئيسي ببطء، كأن السائق أراد أن يرينا مدى الإحساس بالاطمئنان الذي راح يراوده. كان يقود السيارة بفخر، وقد وضع نظارات شمسية سوداء على عينيه، وبين الفينة والأخرى كان يلقي بالسلام على رجال ملتحين يرتدون لباسا أفغانيا، بعضهم كان يحمل بنادق الصيد المحشوشة موضوعة على الكتف، وكان الشارع خاليا من النساء.

توقفت السيارة فجأة وسط شارع خلفي، ودخلنا بيتا فوضويا، بني كيفما اتفق. وبمجرد أن وطئت قدماي البيت حتى أمرني أبو حمزة أن أشرع في طهي الخبز للرجال. نظرت إلى زوجي نظرة عتاب، أردت أن أقول له كيف يترك رجلا غريبا يأمرني بتلك الطريقة ويحولني إلى خادمة. وأدركت

حينها كم كان أبو حمزة هذا قبيحا ورهيبا. كانت له ملامح وجه قاسية. أنفه غليظ نبت عليه قليل من الشعر، وعيناه سوداوين، تعلوهما رموش كثيفة. وكان له شعر أسود كثيف. لم تكن تنبعث منه رائحة المسك، بل رائحة العرق الكريهة، وقد علقت بملابسه المتسخة.

وحين التفت نحو زوجي، قال لي بصرامة :

ـــ نفذي أوامر الأخ أبوحمزة.

أذعنت مرغمة، فشرعت في طهي خبز المطلوع. ساورني إحساس غريب، فألقيت نظرة احتقار نحو زوجي، لم أغفر له خضوعه الأعمى لذلك الرجل الكريه، وأدركت لاحقا بعد أن صعدت إلى الجبل وأصبحت المغارة هي مأواي أن قائد الجماعة له الحق المطلق في التصرف بزوجة أي عضو في الجماعة، يستطيع حتى أن ينام معها ، كما يستطيع أن يطلقها من زوجها ، ويتزوجها زواج متعة لبضعة أسابيع، ثم يعيدها لزوجها ، وعلى هذا الأخير أن يذعن، وإن تعنَّت، قتله الأمير ذبحا. كانوا يتصرفون وفق قاعدة غريبة تقضي بأن القائد إذا حضر بطلت أحكام الشرع ، فالزوجة لا تعود زوجة لزوجها ، بل للقائد يتصرف بها مثلما يشاء. يجعل منها خادمة أو زوجة للمتعة قبل أن يذهب للمعركة.

لما غادرت السيارة وسط القرية، عرج بنا السائق، فدخلنا طريقا غبر معبد. سرنا وسط الغبار بين حقول مهجورة نبتت عليها الحشائش البرية، وتوقفنا عند مدخل حوش فوضوي بنيت بيوته كيفما كان. التف حول السيارة أطفال صغار، لفحت الشمس بشرتهم، وبدا الفقر على محياهم، طلب منا أبو حمزة أن

ننزل، فنزلنا. أتذكر أنني قلت لزوجي "متى نعود إلى بيتنا ؟" فأجابني "حين ننشر الحق، ولا يبقى مكان للطاغوت".

عشنا في الحوش ثلاث سنوات. أصبحت أرتدي جلبابا أسود، ولما ولدت ابنتي راشدة أصبحوا يسمونني أم راشدة. زوجي أصبح عضوا في جماعة الغربان الأكثر شدة، تحت إمرة رجل فظ كان يشتغل حدادا، لم تطأ أقدامه المدرسة يوما. كانت الكتيبة تنفذ العمليات على مشارف العاصمة، تغادر الحوش ليلا، وحين تعود عند الفجر، كنت أشم رائحة الدم وهي تنبعث من ثياب زوجي. تعودت على تلك الرائحة الحمراء القانية، وأصبحت جزءا من حياتي وسط تلك الجماعة. لم تكن الحياة في الحوش سهلة، الناس من حولنا كانوا متدينين جدا، لكنهم متخلفون، كانوا من الرعاع الذين غادروا قرى جبلية منعزلة، لم تطأها أقدام الحكام منذ الاستقلال، ونزلوا إلى مشارف المدن ليحاصروها، ويأخذوا قسطهم من الرفاه الذي حرموا منه، كانوا هم أسياد المكان، لأنهم غلاظ جدا، قساة ومندفعون، مستعدون لتنفيذ أية عملية. وكنا نحن الذين قدمنا من المدن، خاضعين لهم خضوعا مطلقا، ربما لأننا لا نملك قسوتهم، فالأكثر عنفا في الحوش هو الذي كان يسود الآخرين، ويتحكم في مصيرهم، سواء كان رجلا أم امرأة. كان الناس يعيشون على ما يسلبونه من المدينة، يسمونه غنيمة حرب. كانت الأرض بورا لكنهم رفضوا أن يخدموها. كانوا بدوا رحلا، أرادت الدولة فيما مضى أن تجعل منهم فلاحين خلال الثورة الزراعية، لكنهم رضخوا في النهاية، فسيف الكولونيل المسلط على الرقاب آنذاك جعلهم يتقبلون الأمر الواقع. والآن أرادوا تحطيم الدولة للعودة إلى ترحالهم.

لم أتعود على الخراب الذي وضعني فيه زوجي. حاولت الفرار أكثر من مرة والعودة إلى أهلي، لكنني لم أجرؤ. زوجي أخبرني ذات مرة أن مصالح الأمن كانت بصدد البحث عني، وقال إنهم أدرجوا اسمي في خانة الخارجات عن القانون، فإن سلمت نفسي فإن مصيري سيكون الإعدام كما قال لي، وهو يضغط على يدي اليمنى إلى حد الوجع، وكان الشرر يتطاير من عينيه المكحلتين. لقد تغير كثيرا، أصبح أكثر قسوة. ومع مرور الزمن تحولت إلى خادمة.

ولما تكررت محاولاتي للفرار رغم تحذيراته، وقوله لي أن الأمن يبحث عني، وضعني تحت الرقابة، وكلف امرأة لا أعرفها بحراستي. كانت تترقب تنقلاتي في الحوش، ولما بلغني ذلك عدلت عن فكرة الفرار، وقررت الاستسلام للأمر الواقع مكرهة. تزامنت الرقابة المفروضة علي مع تسارع الأحداث. اشتد الخناق من حولنا، فتغيرت الأمور، وتكاثرت هجمات قوات الجيش على مواقعنا. لم نصمد طويلا. الحياة السهلة التي تعودنا عليها لم تعد ممكنة، غنائم المعارك أصبحت قليلة، وفي بعض الأحيان كانت تنعدم. الناس في الحوش أحسوا أنهم فقدوا ما يربطهم بجماعة سليمان عديم اللقب، نفسيتهم تدهورت، وأضحوا يبرزون مزيدا من العنف، يتخاصمون في ما بينهم، فكثر الصياح وعمت الفوضى. وذات ليلة شتوية باردة، بينما كانت قوات الجيش تتقدم نحونا، ملحقة الخسائر تلو الأخرى بصفوفنا الخلفية، وقد ألقت القبض على كثير من الذين كانوا يساعدوننا في قلب العاصمة، أخبرني زوجي أن القائد قرر أن ننسحب إلى جبال البابور. سنختبئ في المغارات قال لي وهو يحزم أمتعتنا لمغادرة المكان. وفعلا صعدنا إلى الجبل.

سرنا مسافات طويلة وسط الأدغال، وماتت ابنتي راشدة ونحن نقطع نهرا جارفا. كدت أجن لفقدها. واكتفى زوجي بالقول "سيعوضنا الله".

الحياة في المغارة لم تكن سهلة، تدهورت أوضاعنا الصحية والمعنوية بشكل مخيف. الرقابة من حولي ظلت قائمة، ثم عاودني إصراري على الفرار، وفي تلك الأيام حملت بابني مصعب. وفي شهري الخامس وقعت المأساة التي وضعت حدا لحياة زوجي. بدأ كل شيء لما غادر المغارة ذات يوم رفقة كتيبة خاصة للقيام بمهمة صعبة في قرية مجاورة. بلغهم أن محاربا قديما ما زال يؤمن بالثورة أقنع أهل القرية بالالتفاف حوله، فقرر الشروع في تعقب أثرنا. أخبرني زوجي أن القائد قرر اغتيال ذلك المحارب قبل أن يصلوا إلينا، حتى يثني الناس عن التفكير مجددا في قتالنا. وفي طريقهم إلى القرية أعطى تعليمات أخرى. طلب من رجاله أن يغتالوا كل محارب قديم يعثرون عليه في طريقهم. بلغوا مشارف القرية عند منتصف الليل. ذبحوا الحراس الذين كانوا يحيطون بمداخلها، ثم تسللوا إلى داخل المنازل. وراحوا يطلقون النار مثل المجانين. أعتقد أنهم قتلوا حتى الأطفال. المحارب الذي بحثوا عنه عثروا عليه بسهولة، وذبحوه على مرأى زوجته وبناته. في تلك الأثناء اقتحم زوجي منزلا يقع على بعد خمسين مترا عن القرية، فوجد نفسه أمام رجل في السبعين من عمره، طويل القامة أسمر البشرة مثله. تبادلا الطلقات مدة نصف ساعة، وفجأة نفذت ذخيرة الرجل الذي كان يقاتل بضراوة، مما جعل زوجي يدرك أنه محارب قديم. ألقى الرجل بسلاحه أرضا وسلم نفسه. جلس على أريكة الصالون، وطفق ينتظر. كان يعرف مصيره. مسك

رأسه بكلتا يديه، وحين اقترب منه زوجي، أسقطه أرضا، ضغط على وجهه برجله اليمنى، ثم صوب فوهة بندقيته نحو رأسه.

لم يتحرك المحارب، حملق في عدوه بنظرة تنبعث منها الكراهية. وكانت نظرة زوجي حاقدة. استمر تبادل النظرات وقتا طويلا، وفجأة تحرك شيء في داخل المحارب. نظراته أصبح يشوبها ما يشبه الشك، ثم الحيرة. كان وجلا. أما نظرات زوجي، فلم تتغير، ظلت تبعث الحقد والضغينة، وفي اللحظة التي تأهب فيها المحارب بالنطق، أطلق زوجي طلقة من سلاحه. طلقة مدوية، صوبها تحت القفص الصدري، فراح المحارب يلفظ أنفاسه، لكنه تجلد وأظهر رغبة في الكلام، فتمتم كلاما التقطه زوجي. قال المحارب "ما اسمك". لم يجبه زوجي. مسكه المحارب من ذراعه، فسأله مجددا "ما اسمك". لم يتلق الجواب. فقال المحارب بينما كان الدم يخرج من فمه "هل اسم أمك هو كلتومة". نزل السؤال على زوجي كالصاعقة، فسأل المحارب"من تكون ؟". أصر المحارب "هل أنت ابن كلتومة". نعم قال زوجي وهو يجلس على ركبتيه، ثم أضاف قائلا "من تكون ؟". مدَّ المحارب يده نحو قاتله الواقف أمامه. مدها نحو وجهه، وهو يقول له "أنا والدك، أنا مصطفى بن أحمد الهواري المولود في دوار بني ريح". لم يصدق زوجي ما سمعه من فرط المأساة، فقال "لكن والدي مات يوم 28 ماي 1957". قال المحارب "لم أمت في مجزرة بني ريح. نجوت بأعجوبة. المجاهد الذي حاول ذبحي وأنا ساقط أرضا عثر على مبلغ من المال في جيب سترتي. وضعته جانبا لكي أمنحه لهم في حال مرورهم من الدوار لجمع التبرعات، مقابل أن يتركونا في حالنا. ربما يكون المجاهد قد فرح بما غنمه، فتركني في مكاني،

هكذا نجوت من الموت. ظننت أن أمك ماتت بدورها، فتسللتُ بين الموتى، وغادرتُ الدوار. صعدت إلى العاصمة، ومن هناك غادرت البلاد إلى تونس. اشتغلت في مقهى البيلفيدر بقلب العاصمة، لكن حرقة العودة إلى البلاد ظلت متوقدة. وذات يوم أخبرني يهودي تونسي أن المفاوضات بين المحاربين والفرنسيين حتما ستفضي إلى مغادرة الأقدام السوداء للبلاد. كنت أعلم حينها بأن عددا كبيرا من الجنود كانوا يرابطون في غارديماو، ينتظرون وقف إطلاق النار للاستيلاء على السلطة. التحقت بالمكان، وتمت تعبئتي بسرعة. أصبحت جنديا، ودخلت البلاد في صيف 1962. كنت أنتمي لزمرة المنتصرين، انتصرنا في الحرب الأهلية، وكان ذلك كافيا لكي أبعد على نفسي كل شبهة بالخيانة. كان الجميع يهابني ويعتقد أنني محارب، محارب السبع سنوات ونصف، محارب الجبال، فحقق لي هذا الاعتقاد لدى الناس هدوءا لازمني طيلة حياتي. تزوجت ثانية، وقد كنت متيقنا بأن أمك قتلت في المجزرة. قل لي هل ما تزال على قيد الحياة؟ كم تمنيت أن ألاقيها ثانية. لكن فجأة تغير كل شيء. أن الراحة والطمأنينة والهدوء ليست في نهاية الأمر سوى مجرد وهم، بالأخص لما نبني كل شيء على البطولات المزيفة. حين تقوَّت شوكة جماعة سليمان عديم اللقب، أصبحت حياتي في خطر. كنت أظن أنني سأموت موتا طبيعيا، وسط أبنائي، وإذا بي أموت مقتولا، وقاتلي هو ابني. إنها سخرية القدر". وقال الرجل قبل أن يلفظ أنفاسه "عد لأمك، أترك الحقد جانبا، تنصل منه لتعيش سعيدا". كان هذا آخر جملة رددها. لفظ أنفاسه الأخيرة، ومات على مرأى من ابنه الذي لم يره أبدا، ولم يلمسه يوما، حتى يده التي مدها لكي يلمس بها وجهه لم تصل، لقد سقطت على الأرضية الإسمنتية حين مات،

على وقع طلقات نارية كانت قادمة من قريب. الذين رأوا ما جرى ذلك اليوم، لم يخبروني أن زوجي ذرف دمعة واحدة، طبعا كان القائد يريد أن يظهر رجاله في صورة محاربين غير عاديين، فروج أن زوجي قتل والده في سبيل الله، لأن المحارب القديم خرج عن تعاليم الله، لذلك قتله أبو قتادة ببرودة دم، منفذا بذلك حكم الله. لست أدري إذن إن بكى زوجي على والده أو لا، لكن بقية المأساة أعرفها. بعد أن لفظ المحارب القديم أنفاسه الأخيرة، ظل أبو قتادة ساكنا في مكانه لا يتحرك، ترك سلاحه جانبا (هنا كذلك لا أعرف إن تحسس وجه والده) وراح يحملق في الرجل الذي كان من المفروض أن يغدق عليه بالحنان لما كان طفلا صغيرا، ربما جرت في ذاكرته صور عن عذاباته الطفولية، وهو يواجه الحياة وحيدا بدون سند. وبينما هو غارق في وجومه، هب رجل في سنه إلى الصالون، كان يحمل سلاحا. لما رأى الميت ملقى على الأرض صاح قائلا "والدي". انه شقيق زوجي، ابن مصطفى بن أحمد الهواري من زوجته الثانية، أخوان لا يعرف أحدهما الآخر، كانا أمام جثة والدهما، وهي غارقة في الدم. وهنا بلغت المأساة خاتمتها، أطلق الرجل الرصاص من سلاحه، فأردى زوجي قتيلا. هذا كل ما أعرفه.

.3

حين انتهت المرأة الماثلة أمامي من سرد تفاصيل مأساتها، شعرت أنني عشت كابوسا حقيقيا، لم أتنصل منه إلا بشق الأنفس. نظرت إلى الخارج فأدركت أن الشمس اختفت وراء السحب الداكنة، وكان البرد يأتي من النافذة المفتوحة. نظرت

إليها فوجدتها تمسح دموعها، وابنها مازال يرمقني بنظراته القاسية. كان مستعدا للانقضاض عليَّ في أية لحظة كالحيوان المفترس، فقلت لها :

ـــ سوف تستفيدين من قانون العفو.

راحت تمسد وجه ابنها، وقد أجلسته على ركبتيها، وأجابت :

ـــ أعرف.

صمتت برهة وأردفت :

ـــ لكن ماذا عساني أفعل الآن، لقد انتهيت كامرأة، بل انتهيت كإنسان.

قلت لها :

ـــ تستفيدين من قانون العفو، وتعودين إلى...

لم تتركني أكمل كلامي، فقالت :

ـــ قلت لك انتهيت. كل شيء انتهى...

صمتت برهة، ثم أضافت :

ـــ ماذا تبقَّى لي الآن غير الموت. حين يدنس الإنسان، الموت هو خلاصه الوحيد. الموت أو الاختفاء. تمنيت أن أموت في الجبل، لكن ذلك لم يحدث معي، كأن القدر أراد لي أن أدفع الثمن غاليا. وهكذا كان، ها قد التقيت بك، وجها لوجه، لقد منحك القدر فرصة مشاهدتي في أحط أوضاعي.

غطت وجهها بكلتا يديها، ثم قالت :

ـــ فعلا إنني أرغب في الموت.

صمتت ثانية، رفعت يدها عن وجه ابنها، وأضافت :

ـــ أنا ضحية زوجي، وهو ضحية الماضي. يجب أن ننظر إلى أخطاء اليوم بالرجوع إلى الماضي.

تركتها، واقتربت من النافذة. أحسست بدوار في رأسي. كنت فريسة أفكار متناقضة. أغيث نازلي ؟ أساعدها ؟ كيف بإمكاني تخليصها من السقوط الأبدي ؟ هل تبقّى شيء من الحب في داخلي تجاهها ؟ هل أنقذها من الضياع ؟ هل أنا قادر على أن أغفر لها ؟ كادت رأسي تنفجر، وأنا أقلب كل هذه الأفكار. فتحت النافذة على سعتها. مَثُل الكون أمامي شاسعا، مفتوحا على أشياء جميلة، أشجار صفصاف مورقة، رواب في الجهة المقابلة تكسوها حشائش خضراء. عصافير كانت تغرد، وقطط تتسلق جذوع الأشجار. استنشقت هواء نقيا وأنا أتأمل كل هذه الأشياء الجميلة الماثلة أمامي. فجأة أخذت الرياح تعبث بأشجار الصنوبر على يسار النافذة، وأدركت أن الغيوم انتشرت في السماء، فأخذت تلوح بالمطر. أدركت أن الصيف يَعُد أيامه الأخيرة. وخزني البرد فجأة، واستولى على جسدي، فأقفلت أزرار معطفي. كنت أشعر بالتعب. أخذت سيجارة ورحت أدخن. تذكرت تلك الأيام التي قضيتها في مقهى الثورة أدخن السيجارة تلو الأخرى. كنت حينها عاشقا لنازلي.عاشق يتألم، يتعذب.

خفضت نازلي رأسها بحزن. أعادت النقاب على وجهها بحركة بطيئة من يدها اليسرى. اختفى وجهها، فتحولت إلى كومة سوداء. كوَّنتُ صورة أخيرة عنها وهي تسقط النقاب على وجهها، ولمحت شيئا يشبه الرغبة في الموت في عينيها. إخفاء الوجه بنقاب أسود يعني اشتهاء الموت والقتل الذاتي. هو نوع من النهاية، من الاختفاء، من كره الذات، ذاتها المدنسة،

تدميرها وعقابها. حين يكف الناس عن رؤية ملامح وجهك، فهذا يعني أنك قطعت الصلة بهم، وأنك ميت. تلك كانت الفكرة التي كونتها عن نازلي وهي تمتثل أمامي في صورتها البشعة، وقد سقطت قطعة القماش الأسود على وجهها. تذكرت عينيها الرائعتين. كانتا تطفحان جمالا أخاذا، كان يضفي على وجهها رغبة في اختلاس الحياة. المغارة حولتها إلى امرأة بملامح بائسة. الزمن الموحش جردها من الجمال. لكن علي بمساعدتها. لن أتركها، علي أن أخرجها من الزمن المتوحش، فأخبرتها :

ـــ عليك بالعودة إلى غيوت فيل.

رفعت رأسها، وقالت :

ـــ لا أستطيع، الناس..

ـــ الناس مستعدون لنسيان ما جرى.

صمتت نازلي. وغادرت أنا المكان. كانت فرائصي ترتعد من شدة هول الكارثة التي لحقت بالفتاة التي كانت عاشقتي ذات يوم، تاركا مصيرها بين يديها، فلو عادت إلى غيوت فيل، أعلم جيدا أنها ستعيش بين أهلها وسيساعدونها على العودة للزمن. وفجأة راودتني أفكار عن الذاكرة والنسيان.. هل علينا أن ننسى ما قام به الخارجون عن القانون ؟ لم أترك السؤال يلح علي، ليثقل كاهلي، ويغرق حياتي في تفكير أنا في غنى عنه، لقد أتعبني الزمن المتوحش كثيرا، والآن بي رغبة في استعادة صفائي فقلت في قرارة نفسي "إذا أراد الناس نسيان ما جرى، فليفعلوا ذلك".

.4

لما عدت إلى العاصمة شرعت أولى أمطار الخريف في التساقط. كان في داخلي رغبة في تغيير الأجواء. إحساس لا يقاوم كان يدفع بي إلى العزلة ثانية. طلبت عطلة غير مدفوعة الأجر، مدتها ستة أشهر. أحسست أن شيئا خفيا كان يدفعني للكتابة. ربما الحنين إلى تلك العوالم المفتقدة، والإبانة لعالم الطفولة، لحي سان كلو الذي لم تطأه قدماي منذ ثماني سنوات. الموت الذي كان يلاحقني أجبرني على مغادرته، وهاهي الرغبة في معاودة الحياة به تتأجج في من جديد. أعرف أن الزمن الموحش انتهى، والعودة ممكنة، لذلك قررت أن أعود.

حين أخبرت قائد المقاومين عن نيتي، ربت على كتفي، وقال "بإمكانك ترك مسدسك معك، لا تدري ربما يتجرأ أحدهم على إيذائك". أخبرته أنني لم أعد بحاجة للسلاح، حملته لسنوات طويلة، والآن بي رغبة في الإحساس بالخفة، أريد فصل جسدي عن هذه القطعة الحديدية التي لازمتني طويلا. صمتت برهة، ثم قلت "لست بحاجة للسلاح، فقد قررت العفو". كنت أريد أن أعود لذاتي، لذلك الإنسان الحساس الذي كنته قبل أن تتحول البلاد إلى ما أصبحت عليه، بؤرة للموت والقتل. لذلك رفضت ترك السلاح معي. لكن القائد ظل مصرا، فقال :

ـــ أترك السلاح معك، قلت لك، الجميع أضحى يحمل السلاح معه، ولماذا لا تحمله أنت يازينو.

نظرت إلى الخارج من نافذة مكتبه، وقلت :

ـــ حسنا، سأتركه معي لفترة قصيرة، ثم أعيده لكم.

خرجت من المركز، وتوجهت إلى الحمام التركي الواقع في الحي العتيق. أه كم مضى من الوقت. لم أعد أتذكر آخر مرة جئت

فيها إلى هنا. غسلت جسدي مرات متتالية. كياس الحمام بدا وكأنه نسيني. لما أخبرته أنني كنت أتردد على المكان في ما مضى، قال لي" تذكرت الآن من تكون". ترك الابتسامة ترتسم على وجهه الدائري، وقال ثانية :

ـــ ظننتك ميتا.

ولما شرع في غسل جسدي بدا منزعجا. أخبرته أنني لم أدخل حماما تركيا منذ بدأ الزمن المتوحش. كنت أستحم مرتين في الأسبوع، أسخن الماء في إناء كبير وأتركه يسيل علي، ويبدو أن جسدي كله علقت به كتل سميكة من الجلد الميت.

و لما انتهى من غسلي، نظرت في المرآة التي كانت أمامي، فرأيت ملامح وجهي التي قست. وضعت أصابعي على شاربي المبلل عرقا، وفجأة قررت حلقه. فعلت ذلك بكثير من اللذة. تدفقتُ سعادة وأنا أمرر موسى الحلاقة عليه. انمحت رويدا رويدا، وبدأت تظهر سحنتي التي كانت قبل سنوات. عادت ملامح وجهي الطفولية، برزت البراءة مجددا، سطعت على وجهي كسطوع الشمس على مدينة باردة.

نمت ساعة كاملة في قاعة الاسترخاء. ولما استيقظت وجدت أن الضجيج عم المكان. ارتديت ملابسي ببطء، وغادرت الحمام. أخذت بقية ملابسي من النزل، وضعتها في حقيبة جلدية سوداء، وتوجهت إلى حي سان كلو. مشيت على طول شارع الجمهورية بمحاذاة البحر، وكانت السماء تمطر مطرا رقيقا، لم أكن أحمل مظلة، فأسعدني أن أحس بماء المطر يلامس وجهي، وأنا أسير قرب البحر. تذكرت أيام الطفولة، فحزنت على الزمن الذي أصبح يفصلني عنها. فكرت في أوسكار منزيرا بطل رواية "الطبل الصفيح" لغونتر غراس، وأعجبتني فكرة أن يصمم

الإنسان على البقاء صغيرا لا يكبر، فالطفولة هي السعادة، هي الطمأنينة، أما السن المتقدم، فهو المأساة. صغيرا كنت أجئ إلى هنا، أتمتع بالبحر والسفن. كنت أحلم بأن أصبح صيادا على ظهر قارب مثل والدي، فأصبحت مقاوما. قتلت عشرات الأشخاص. أشخاصا أشرار، لكنهم تألموا وهم يموتون. آه كم هو صعب أن يقتل الإنسان. تعذبت عذابا مؤلما وأنا أقتل، لكنني تعودت على القتل مع مر الزمن، فأصبح شيئا عاديا. حياتي عبث، كنت أحلم بالبحر، فأصبحت ... أصبحت ماذا ؟ قاتلا ؟.. هل أنا قاتل فعلا ؟... طبعا لست قاتلا... كنت أدافع عن نفسي... عن أمي.. عن والدي.. عن كل أفراد عائلتي.. عن الناس الشرفاء... دافعت عن حقي وحقهم في الوجود.. لا لست قاتلا، أنا إنسان حساس، أعشق الحياة، كانت بي رغبة في الحياة، حينما كان أبناء جيلي يشتهون الموت. كنت مؤمنا جدا، مؤمنا بأن الإله هو من غرس فينا هذه الرغبة المتأججة في الحياة، في دوام الجنس البشري، بينما كان يسعى آخرون لزرع الموت في كل مكان... هؤلاء لا يعرفون أن الموت لو استمر بالشكل الجنوني الذي يريدونه سيؤدي إلى موت الإله. فما معنى الإله، والإيمان والدين في عالم يختفي فيه الإنسان؟ إنه لا يعني أي شيء... إنه العدم...أنا لا أتصور الكون بدون الإنسان، ولا الإله. لهذا السبب قتلت، قتلت لأقضي على من يريد كتم صوت الإله في الكون، قتلت بدافع الإيمان. وليغفر لي الإله رغم كل شيء.

حين وصلت إلى حي سان كلو، كانت السادسة مساء. نسمات البحر النقية ولجت أنفاسي. بدا لي منزلنا من بعيد، كما كان، لم يتغير. أشجار الموز بدت لي مورقة وخضراء. حتما

والدي مازال يعطي نفسه مشقة الاعتناء بها. يرويها ماء صباح مساء. تذكرت جدي. قبل وفاته، كان يجلس تحت ظلالها وفي مساءات الصيف. يتكئ على كرسي هزاز، وحيدا، صامتا، ساهيا، ويسترجع خيباته. الآن مات جدي، وبقيت أشجار الموز مورقة، عالية، تثمر موزا، يقطعها والدي، فتموت، وتلد الشجرة شجرة أخرى لتستوطن الفراغ الذي تركته الشجرة التي ماتت بعد أن أثمرت، وتشيد ظلالا تجعل الزمن قابلا للعيش، ولو في ذلك الركن المنزوي من بيتنا، بعد أن أصبحت الحياة في الخارج لا تطاق. كم أحب شجرة الموز، تذهلني قدرتها على البقاء، تتدفق منها الحياة، وتنهمر، كما تذكرني بجدي الذي مات. إنها ما تزال ماثلة أمامي، رأيتها ما أن لمست قدماي حي سان كلو. وذكرى جدي عالقة بها، وستبقى إلى الأبد. لقد حفرت في كياني.

أهل الحي، ممن وجدتهم جالسين عند شجرة التوت، تغيرت ملامحهم، لم أرهم منذ غادرت سان كلو. بعضهم سار وراء سليمان عديم اللقب، هؤلاء رمقوني بنظرة قاسية، وبادلتهم نفس النظرة. لكنني سرعان ما عدلت عنها، وقلت في نفسي "يجب أن أتصالح مع الجميع". فالحرب انتهت، ولا جدوى من الاحتفاظ بالضغينة. وآخرون ردوا على سلامي، ومشيت إلى منزلنا دون أن أتوقف.

طرقت الباب ثلاث مرات، فسمعت أختي تقول "شكون؟" فأجبتها :

ـــ زينو.

فتحت الباب بسرعة، وسلمت علي. بدت لي نحيفة كما تركتها آخر مرة زارتني في مركز المقاومين.

شممت روائح البيت. لم تتغير. رائحة النقاء. رائحة الورود، حتما ما تزال أمي تعتني بها. سمعتها تتكلم من الفناء :

ـــ منهو ؟

فأجابت أختي :

ـــ زينو.

نزلتُ إلى فناء الدار حتى لا تصعد هي. أعرف أن رجلها تؤلمها، ولا تقوى على الصعود. بكت لما رأتني، فقالت بالبربرية :

ـــ أيغر إدوسيذ ؟ (لماذا جئت ؟)

قلت لها :

ـــ عييغ (تعبت).

ـــ أرثوكذذ أرى أكننغن ؟ (ألا تخف من أن يقتلوك؟).

ابتسمت، ثم قلت :

ـــ ذاين أيفوك كل شي (انتهى كل شيء الآن).

صمتت برهة، وأضفتُ :

ـــ أُربغيغ أرى أذيمغوررغ بعيد أفخم أنغ (لا أريد أن أكبر بعيدا عن منزلنا).

كنت أرغب في أن أخبرها أن الحياة أصبحت مخيفة، وأنه من الصعب أن يحيا الإنسان بعيدا عن أماكن الطفولة، بعيدا عن ذكرياته، لقد أراد أتباع سليمان عديم اللقب أن يحرموننني من الالتصاق بهذه الأماكن، وأن يخربوها، لهذا حاربتهم، وقتلت منهم الكثير دون ندم، كنت أرغب في أن أخبر أمي بكل مخاوفي، لكنني عدلت عن ذلك. تجلدت، تركت ملامح الهدوء تنساب على وجهي، وقلت لأمي :

ـــ أبغيغ أذغنغ ذي ثخمتيو أموسان أنزيك (أريد أن أنام في غرفتي مثل أيام زمان).

كم يسعد الإنسان بامتلاك غرفة، مكان للذكريات يعود إليه بعد أن غادره زمنا طويلا، مكان ما يزال يحتوي على الكتب ذاتها، والسرير ذاته، وفيه الرطوبة ما تزال عالقة على الجدران، تنبعث منها رائحة الانغلاق. مكان لكل الأشياء التي رافقته منذ كان طفلا صغيرا. لما يعود الإنسان إلى هذا المكان، تتقاسمه الغبطة والتعاسة، غبطة العودة، وتعاسة التقلب الذي حل به، يقارن لحظة الماضي، بالحاضر المكروب المملوء أسى، فيجد أنه ابتعد كثيرا عن ذلك الهدوء الطفولي الذي كان ينعم به، وحينما يدرك كم نأى عنه، ينقبض صدره، فيبكي، يبكي لأنه ابتعد عن الحياة الهنيئة، فيصاب بالخيبة. وما أتعس الانسان الذي أصيب بالخيبة.

أشعلت ضوء الغرفة، وجثمت في مكاني عند عتبة الباب. بدا لي المكان ضيقا... لا شيئ تغير في الغرفة... لا تزال الصور عالقة على الجدران... صورة إرنست همنغواي معلقة قرب السرير... صورة كبيرة تظهر الكاتب حزينا... ربما أخذت له قبل أن ينتحر بأيام قليلة... وبالقرب منه صورة أخرى... لقطة من فيلم "كي لارغو" بطولة همنفري بوغارت... وعلى طاولة صغيرة وضعت صورا مصففة بعناية.. زينو في سن الخامسة.. صورة بالأبيض والأسود... طفل صغير بريء، مطأطأ الرأس كأنه يستحي من شيء، شعره أملس يصل إلى غاية المنكبين، مطلي بالبريانتين... صورة أخرى بالأبيض والأسود كذلك... زينو في سن الثانية عشرة... الملامح ذاتها، الشعر مقصوص لم يعد يصل إلى المنكبين، لكن البراءة تشع كما في سن

الخامسة... الصورة الثالثة بالألوان... زينو في سن السادسة عشر، زغب رقيق بدأ يغزو ذقنه... يرتدي سروال بلو جينز باهت اللون وبوتس أمريكي أسود... زينو في هذه الصورة يبتسم، لكن ابتسامته كئيبة، كأنه يخفي حزنا دفينا. وفي صورة أخرى بلغ زينو سن العشرين والحزن هذه المرة ظاهر.

دخلت الغرفة حزينا، حزنا يشبه كآبة الصورة التي التقطت منذ عشرين سنة. جلست على سريري، فلحقت بي أمي، وقلت لها أنني أرغب في النوم. لاحظت تجاعيد وجهها الكثيرة، وقالت أنها ستوقظني عند العشاء، فغادرت الغرفة، وقد أغلقت الباب وراءها.

وأنا وحيد في غرفتي، فكرت في الوضعية التي آلت إليها حياتي. أدركت أنني ضيعت سنوات من عمري. قفزت على شبابي قفزا، وبلغت الأربعين، أسكن عند والدي، بدون زوجة ولا أطفال. فقدت طعم السعادة. عشت شبابي حزينا، ولست أدري ماذا ينتظرني غدا.

أحسست فجأة برغبة في النوم، وضعت رأسي على الوسادة، ونمت إلى الصباح. نمت دون أن يعاودني ذلك الكابوس المخيف الذي كان يجعل الحضور الكلي والمهووس للموت يفجعني، ويرميني بين مخالب الهلاك، فأستيقظ مفزوعا، مذعورا، وقد رأيت أن رأسي انتزع من جسدي بضربة خنجر صدئ، فأندفع من على سريري مرتاعا، خائفا، مخنوقا، وكأني أريد أن أنفلت من شيء يحاصرني، وأبتعد من مكان مخصص للموت لا غير. لم يحدث هذا، مثلما حدث في المرات السابقة، نمت نوما خاليا من الكوابيس. ورأيت في حلم جميل أن نازلي استعادت جمالها، وعادت إلى غيوت فيل، وأن الناس جميعا تصالحوا

فيما بينهم، لا أحد يحقد على الأخر، يجلسون عند مدخل الحي في جماعة واحدة، يتحدثون في أمور الحياة، وكانت لهم أراء مختلفة، كانوا هادئين، طيبين وصبورين، ومتسامحين في ما بينهم، ولما أذن المؤذن للصلاة، نهض بعضهم وقصد المسجد للفلاح، وآخرون ظلوا جالسين تحت شجرة التوت، يحدقون في السماء الصافية، وينتظرون هداية الإله لدخول المسجد والصلاة مثل الناس جميعا، وهم واثقون من ذلك، فهم أناس طيبون، والإله لا ينسى أحدا من عباده، ثم أن طريقه هو طريق النور والصواب، يرجع إليه كل من تاه في زحمة الحياة، ومشى على دروب الشر، فحمدا لله، وأستغفر الله من كل ذنب عظيم. ولما عاد المصلون جلسوا في أماكنهم، واسترسلوا في الحديث مجددا، بالهدوء ذاته والتسامح ذاته، وفي الحلم دائما سمعت أحدهم يقول "لو نبقى على هذا الحال، سنموت سعداء و سندخل الجنة حتما"... وبينما كان الناس الذين رأيتهم في الحلم يضحكون، ويسترسلون في الحديث، أظلم الكون فجأة، وتلبدت السماء بغيوم داكنة، فقد ظهر رجل مخيف، قصير القامة، منتفخ البطن، يرتدي ملابس مستوردة، يحمل على ظهره كيسا من المال، ويسير بخطى مسرعة، فتوقف أهل الحي عن الضحك فجأة، والتفتوا كلهم نحو الرجل الغريب الذي دخل الحي، وكانوا خائفين... هذا ما رأيته في الحلم... رأيت أن زمن الغربان المتوحش كان قد انتهى... وبدأ زمن الرجل الثري...

الجزائر مارس 2004 / نوفمبر 2005